مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (١٥)، العدد (٢)، ص ص ٤٦٧-٥٣٠، (ربيع الثاني ١٤٤٣ هـ/ نوفمبر ٢٠٢١)

بلاغة الوَقْع في نماذج من أدب الأخبار

أ.د. النوراني عبد الكريم كبور جبير
أستاذ البلاغة والنقد /قسم اللغة العربية وآدابها/كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية/جامعة القصيم

ملخّص البحث:

حفلت كتب الأدب والنوادر بكثير من الأخبار والقصص التي تميّزت بدقّة الوصف في سرد الوقائع، وحكاية الحوار، وبيان ردود الأفعال تجاه الكلام. وكان هذا محفزاً للعناية بدراسة الوقع. وبلاغة الوقع ترتبط بخطاب يتلقّاه المتلقّي، ويحوي الخطاب على أمر أو أمور مفاجئة تباغت المتلقّي؛ فتكون ردّة فعله حركة بالجسد؛ تصور انفعاله بالكلام. وتلك الحركة التي تسبق اللغة المعياريّة تمثّل تعبيراً يمكن أن يفهم ضمناً، مثل: الاستحسان، والطرب، والشفقة، والحزن، ونحو هذا. وانفعال النفس بالخطاب قد يخلق حركة ظاهريّة بالجسد يمكن ملاحظتها، والحكم عليها، وقد تكون الحركة معنويّة داخل النفس لا تُدرك إلّا حين يفصح المتلقّي عن وقع الكلام في نفسه. وعليه فإنَّ بلاغة الوقع تمثّل وجهاً آخر للتعبير، أو ردّة الفعل تجاه الكلام.

الكلمات المفتاحية: الوقع، المتلقي، ردة الفعل، حركة الجسد

المقدمة

تمثّل هذه الدراسة مسلكاً من المسالك غير المطروقة في البلاغة العربية، التي لم تنل حظّها من البحث والدراسة، وهي بلاغة الوقع التي تبيّن أثر الكلام التداولي على المتلقّي وردة فعله تجاه ما سمع؛ حيث يظهر ذلك في حركة تتجلى في الجسد.

وتتمحور هذه الدراسة حول بلاغة الوقع من حيث هي بلاغة صامتة تتشكّل في حركة الجسد، وهي حركة لا شعورية تؤثر فيها شدّة الانفعال النابع عن المفاجأة والمباغتة؛ فقد يشق المتلقّي ثيابه، أو يحمرّ وجهه، أو يخر ساجداً، أو يدخل في نوبة من الضحك لدرجة السقوط على الأرض، ونحو هذا، وهو ما يمكن أن نطلق عليه: بلاغة الوقع أو بلاغة الحركة أو بلاغة الإشارة.

واعتمدت هذه الدراسة على كتب الأخبار والنوادر التي تزخر بمادة خصبة في هذا المجال؛ فقد روت الكثير من المواقف والأحداث التي تتجلّى فيها بلاغة الوقع وبيان أثر الكلام على المتلقّي، حيث عني رواة الأخبار بالإشارة إلى ردة فعل المخاطب لما سمع.

وهذه الدراسة تعدّ إضافة للدراسات البلاغية الحديثة التي تستثمر التراث العربي الزاخر، وتبرز جانباً بقي مهملًا وتسلط الضوء عليه، وتفتح بذلك السبيل للمزيد من الدراسات حول هذا الموضوع لتجليته وتطويره، وللإفادة من التراث العربي، فتعالج هذه الدراسة بلاغة الوقع لتبيّن اتّجاهات الانفعالات المتباينة الناتجة عن أثر الكلام في النفس، وهي الاتّجاهات التي يمكن معرفتها من خلال مشاهدة حركة جسد المتلقّي وقراءتها في ضوء قرائن الأحوال.

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أهمّيّة دراسة الشواهد الدالّة على الانفعال بالكلام، والتعبير بحركة الجسد، وهي المرحلة التي تغيب فيها اللغة المنطوقة، ويقوم الجسد

بتجسيد المعنى؛ فيتحوّل الجسد إلى لوحة تصوّر تصويراً عميقا أثر الكلام في النفس، ودلالة حركة الجسد عليه.

وتطرح هذه الدراسة بعض التساؤلات التي تسعى للإجابة عنها: ماذا نعني ببلاغة الوقع، وما دور المتلقّي في تشكيل هذا النوع البلاغي، وما أهمية البنية الخبرية في تشكيل هذه البلاغة، وما هي ردود الأفعال التي تتجلى فيها هذا النوع البلاغي؟

وتأتي أهمية هذه الدراسة في تناولها لجانب مهمّ من بلاغة التعبير البعيدة عن اللغة المنطوقة، وهي بلاغة حركة الجسد التي تصور أثر الكلام ووقعه في النفس، والتعبير بالحركة قديم يضرب في أعماق التاريخ الإنساني، ترويه كتب الأخبار والنوادر والقصص.

مفهوم الوَقْع في اللغة والاصطلاح:

الوَقْعُ في اللغة: صوت ارتطام المطر بالأرض، ولهذا الفعل أثر في الأرض[١]؛ حيث تتحرّك الأرض بالإنبات، قال تعالى: (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (الحج: ٥)، وقال ابن كثير: (فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أي: تحركت وحييت بعد موتها)[٢]، ويقول تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (فصلت: ٣٩)، وقال القرطبي: (فإذا أنزلنا من السماء غيثاً على هذه الأرض الخاشعة اهتزت بالنبات.

---

(١) ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، طبعة دار صادر، بيروت - لبنان، بدون تاريخ، (باب الواو).

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمد السلامة، طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض - السعودية، (ط٢)، سنة ١٩٩٩م، ٣٩٨/٥.

يقول: تحرّكت به)[١]، ومن معاني الوقع: الأثر[٢]، فوقع الكلام: أثره، فللكلام وقع في النفوس يتفاوت بتفاوت درجاته وسياقاته، والوقع والوقيعة: بمعنى الحدث[٣]، ومن هنا يدلّ على ما يحدثه الكلام في النفس من أثر يظهر في الجسد.

والوَقْع والتوقيع: هو أثر الحمل على ظهر الدابة [٤]، ومن ذلك قولهم: وقّع السرج ظهر الدابّة؛ إذا ظهر فيه أثر الدبر، ومن هنا فإنَّ الشحنة العاطفيّة في الخطاب تحدث أثراً في النفس. فيظهر الأثر في حركة الجسد التي تعبّر عن ردّة الفعل.

ومن معاني الوَقْع: التناسب؛ وقع الشيء: ناسبه، ومن ذلك قولهم: هذه نعل لا تقع على رجلي: أي لا تناسبها[٥]، وهذا المعنى يتّفق مع المفهوم الاصطلاحيّ للوقع، وهو التناسب بين الكلام وردّة الفعل التي تصدر عن المتلقّي.

ومعاني كلمة (وَقْع) في اللغة تدور حول الأثر والتناسب، وهي ألصق المعاني بدلالة المعنى الاصطلاحيّ للكلمة.

---

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي وآخرون، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، (ط١)، سنة ١٤٢٧هـ

، ١٥/ ٤٢٥ -٤٢٦.

(٢) معجم المعاني الإلكتروني، مادة (وقع).

(٣) معجم المعاني الإلكتروني، مادة (وقع).

(٤) ابن فارس، أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ج٦ (باب الواو والقاف).

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، (ط٤)، سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، مادة (وقع).

الوَقْع في الاصطلاح: لم أقع على تعريف اصطلاحي للوقع بالمفهوم الذي يعبر عن هذه الدراسة، ولكني أرى أنّه: هو دراسة ردّ فعل الكلام، والمقصود هنا ردّة الفعل المباغت الذي لا يكون صاحبه مستعدّاً له، وتقع ردّة الفعل هذه في حيّز زمنيّ قصير، وهو فعل عفويّ لا تؤدّيه اللغة، وإذا جاءت اللغة المعبّرة تأتي في مرحلة لاحقة، ويكون تفسيراً لحركة الجسد وشرحاً لها. والخطاب الذي يأتي مفاجئاً للمتلقّي يولّد فيه ضرباً من التداعيات الذهنيّة والانفعاليّة؛ لأنّ المتوقّع أو المألوف لا يثير هذه الحالة التي تعتمد على اللاوعي؛ فتسبق حركة الجسد لسان المتلقي.

وحركة الجسد الناتجة عن الانفعال بسبب وقع الكلام في النفس تحوّل الجسد نصّا يمكن للمتلقّي قراءته عن طريق الانتقال من المشاهدة الحسّيّة للحركة الظاهريّة إلى فهم المعنى، وتأويل ردود الأفعال. وتحدث حركة الجسد الناتجة عن وقع الكلام حين لا يجد الإنسان العبارة اللفظيّة المناسبة التي يقولها في تلك اللحظات الخاطفة لوقع الكلام في النفس حيث يباغته الانفعال، ويأخذه الإحساس الجارف.

أثر الدالّ والمدلول والسياق (المقام):

لحركة الجسد الناجمة عن ردّة الفعل دالّ ومدلول؛ فالدالّ هو الحركة الجسديّة التي تظهر في الضحك، أو البكاء، أو الرجفة، أو الإغماء، أو احمرار الوجه أو العينين أو غير ذلك. والمدلول هو الصورة المعنوية التي تتشكّل في ذهن المتلقّي أو النظّارة. وهو ما يفهم من حركة الجسد وفق المقام كالطرب، أو الغضب، أو الرقّة والرحمة ونحوها. فحركة الجسد في عمومها ذات طبيعة رمزية في دلالتها على المعنى وليست قطعيّة كالتعبير اللسانيّ. وكثير من حركات الجسد لها أكثر من دلالة، وقد تدلّ أكثر من حركة جسديّة على معنى واحد. فلا يفهم المعنى المقصود إلّا من خلال المقام الخطابيّ، والسياق الذي يرد فيه. وردّة الفعل العفويّة التي يرسمها الجسد لا يقصد صاحبها منها

- في الغالب - الإشارة بها إلى معنى معين، بل قد لا يدرك أنّها تومئ إلى شيء مّا؛ لأنّها في الغالب لا شعوريّة؛ فالجهاز العصبيّ قد يسبق الوعي في إرسال إشارات إلى الجوارح. وإن كانت ردّة فعل الجسد العفويّة تفصح عن إحساس معيّن، وانفعال بعينه فهي في هذه الحالة تكشف عن معنى، والناظر إلى مفهوم البيان عند الجاحظ يجده يشمل اللسانيّ وغير اللسانيّ [١]. ويشمل غير اللسانيّ حركة الجسد، وهي تبيّن ردود الفعل الناجمة من موقف مّا. فيتحوّل الجسد نصّا يفصح عن مكنونات النفس قبل أن تتفاعل ملكة الكلام. فالجاحظ يركّز على الإفهام والإيضاح، فكلّ ما أدّى إلى ذلك يدخل في مفهوم البيان، ودلالات البيان عند الجاحظ خمسة؛ منها "النصبة"، والنصبة في تعريف الجاحظ هي: الحالة الناطقة بغير لفظ [٢]، وهي حركات الجسد التي تعبّر عن أثر وقع الكلام في النفس، والتي تكشف عن أحوال نفسيّة متنوّعة.

دور المتلقّي:

تتجلّى بلاغة الجسد في المتلقّي الذي يقع فيه أثر الكلام، وتظهر فيه ردّة الفعل. فللمتلقّي دور في إبراز أثر الكلام، وما تحدثه فيه اللغة في قوالبها الفنيّة من أثر، وتبدو تداعيات الكلام واضحة في طريقة انفعاله؛ خاصة حين يأتي الكلام في سياق لا يتوقعّه أو يخطر له على بال. فيتحول جسده لوحة تنعكس فيها تأثيرات الخطاب، فنستطيع أن ندرك من خلاله كيفيّة تفاعله مع الخطاب.

ودراسة الخطاب عموماً لا تكتمل دون العناية بالمتلقي وأبعاده النفسية، وذكره من خلال ردة فعله تجاه الخطاب، وهذا منحى مهم وبارز في هذا الحقل؛ فلم يعد من

---

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طبعة دار الجيل، بيرت - لبنان، سنة ١٩٩٠، ٧٦/١.

(٢) المصدر السابق، ٨١/١.

الممكن إقصاء المتلقي أو إهماله، فقد بات لردود أفعاله قيمة عظيمة في الوقوف على بلاغة الخطاب في عمقه التداولي، والأسلوبي، فإنَّ الأزمة الانفعالية التي توقعها الكلام في النفس نتيجة للمباغتة تجعل النفس تكتسب شحنات قوية من الانفعال والمفاجأة معاً؛ فيتطهر منها الإنسان بحركة جسدية موازية، فالتعبير بالجسد تمثل آلية مشتركة لدراسة كل أشكال الكلام، وتأثيرها في النفس.

والوقع قد وقف عليه الفلاسفة والنقاد والبلاغيّون القدامى والمحدثون، فقد أقام أرسطو نظريّته في التطهير على الوقع، فنظريّة التطهير[1] (catharsis) التي نادى بها أرسطو تصوّر أهمّيّة ردّة فعل المتلقّين لأحداث المسرحيّة حين يبلغ بهم الانفعال الحدّ الذي يتجسّد في الإغراق في الضحك، أو الإسراف في الحزن والبكاء، أو الاشمئزاز.

والتطهير عند أرسطو من معانيها التفريغ العاطفي والجسدي، وهي ترتبط في أصلها بالتأثير الانفعالي الذي يثيره العمل الفني أو الأدبي. وهذا ينطبق على بلاغة الوقع التي تنطلق من المفهوم نفسه في صورته العامة.

وقد أشار أرسطو في كتابه (الخطابة) إلى (الباتوس)، وهي الأحاسيس الناجمة عن أثر الخطاب في نفس المتلقي، وقد حصرها في: "الغضب، والسكون، والكراهية، الخوف، الأمن، والخجل، والوقاحة، والإحسان، والشفقة، والسخط، والحسد، والاغتباط"، وهي في مجملها الأهواء أو النوازع التي تحكم عواطف المتلقي تحت تأثير الخطاب، وهي تمثل ردود الأفعال في بلاغة الوقع؛ فكثير من النوازع السابقة تكون محركة للجسد على نحو ما.

---

(١) أرسطو، فن الشعر لأرسطو، ترجمة وتحقيق: عبد الرحمن بدوي، طبعة مكتبة نهضة مصر، القاهرة - مصر، سنة ١٩٥٣م، ص١٢ وما بعدها.

والفرق بين المتلقي في بلاغة الوقع والمتلقي عند أرسطو (الباتوس)، أنَّ المتحدث عند أرسطو يهيئ المتلقين لأثر كلامه المتوقّع في نفوسهم؛ فيمهّد له بمقدمات يشعرهم بما يمكن أن يتعرضوا له، أما الوقع فيعتمد بالدرجة الأولى على المباغتة والمفاجأة التي تجعل المتلقّي ينفعل بجسده قبل لسانه بحركة لا شعورية؛ فيكون تأثير الكلام في نفسه قوياً محركاً للعقل الباطن.

وقد تحدّث الناقد عبد الرحمن القعود عن (الوقع) وأثره في المتلقّي. فهو يرى أنَّ تأثير الخطاب في المتلقّي يولّد نوعاً من الإيقاع يسمّى (الوقع)، كوقع القصيدة في نفسيّة المخاطب ووجدانه وصداها في مواطن إحساسه [١].

وحركة الجسد المباغتة هذه هي في عمقها السيكولوجي تفريغ للشحنة العاطفية التي تولّدت في ومضة من الزمان؛ فيضطرب لها الجسد بعنف تتفاوت درجاته، وهي في عمومها وسيلة نفسية للتحرر من أثر الانفعال الهائل الذي نجم عن الكلام، وهو ما يمكن أن نسميه بالانفجار العاطفي الذي يحدث فوضى في إدراك المشاعر، فيتحرك اللاشعور ليحرك الجوارح الحسية، قبل أن يعود للإنسان صوابه وطبيعته؛ فيأخذ بزمام أمره، ويحرك لسانه.

وقد ارتبط مفهوم التطهير الأرسطي في العصر الحديث بعلم جمال التلقي، وبمفهوم الاستقبال، والأثر الناتج عن المشاهد أو الكلام التي تتمثل في ردود أفعال كالخوف أو الشفقة ونحوها. وبلاغة الوقع ترتبط بالمتلقي أو المستقبل للكلام، وينتج عن ذلك ردة فعل تختلف باختلاف السياق كالخوف، أو الشفقة او الغبطة، أو الرحمة، أو الضحك، أو الصراخ، أو البكاء، وهي تبدو واضحة في حركة الجوارح.

---

(١) الإبداع والتلقي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد (٤)، المجلد (٢٥)، إبريل ١٩٩٧م، ص١٦٤.

ويقول ابن سينا: "الكلام المتخيل هو الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور من غير رويّة وفكر واختيار، وبالجملة تنفعل له النفس انفعالا غير فكري"[1] فابن سينا هنا يتحدث عن أثر الكلام وردة فعل المتلقي، وأنها للوهلة الأولى تكون مباغتة بلا روية أو اختيار؛ بحيث يستجيب الجسد بحركة ما أو بفعل ما أو صوت ما تحت تأثير انفعال غير فكري.

وهنا تغيب اللغة اللفظية؛ فالكلام من بنات الفكر يستلزم حضور العقل، بخلاف الهذيان. وما أشار إليه ابن سينا هو النطاق الذي تحدث فيه بلاغة الوقع والتعبير بالجسد.

مقدرة اللغة على التعبير:

هل اللغة قادرة على التعبير عن كلّ شيء نودّ التعبير عنه؟ وهل اللفظ قادر على الإحاطة بمدلولاته المعنوية بمستوياته التي تختلف باختلاف المقام والأحوال؟

للغة إمكانات هائلة في نقل الأفكار وتصوير المعاني والتعبير عن الانفعالات وخلجات النفوس، ولكن ليس دائما، فهناك حالات تعتري الإنسان من فرح أو بهجة أو حزن أو طرب أو دهشة أو بهت أو رقة وشفقة ونحوها؛ فتتحرّك المشاعر والعواطف على نحو يفوق طاقة اللغة ومدلولات الألفاظ في تلك اللحظات. ومن هنا جاءت الاستعانة في الخطابة، وفي بعض أشكال الخطاب والحوارات، والاستعانة هي: إشارات بالجسد يستعين بها المتكلّم في التعبير والتأثير في المتلقّي، ولو تركها لانهارت معانيه، وصار ما يقوله بارداً. فالاستعانة في الكلام تعضد مدلولات اللغة، وهيئة الخطيب من أعظم مكملات الأداء الخطابي.

---

(١) ابن سينا، الشفاء، المنطق - الشعر، تحقيق عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتألف والترجمة، القاهرة، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، ص٢٤.

مستويات هذا الأسلوب:

لهذا الأسلوب مستويات متعدّدة في ردود الأفعال، منها:

- الإعجاب والاستطراف: ويعبّر عنه بالضحك.

- الطرب: ويعبّر عنه بشقّ الثياب أو الهزّة أو الحبو على الأرض أو الصراخ، ونحو ذلك.

- الرقّة والتأثّر: ويعبّر عنه بالبكاء أو الصراخ أو تساقط الدموع في صمت.

- الحزن والحسرة: ويعبّر عنه بالشهيق أو البكاء أو الإطراق واللطم أو تصبُّب العرق.

- الفرح والاستبشار: ويعبّر عنه باحمرار الخدود أو البكاء أو الضحك أو إشراق الوجه أو السجود.

- الإفحام والخجل: ويعبّر عنه بالإطراق والضحك.

أولاً: الإعجاب والاستطراف:

الاستطراف مصدر من الفعل استطرف، ومادة (طرف) في اللغة تأتي بمعنى الكلام المستحسن الذي له في النفس وقع وتأثير، وهو ما يثير الانتباه والإعجاب من القصص والنوادر والأخبار، و(الطُرفة) هي الملحة وهو كل حديث تستحسنه النفس، وكل مستحدث معجب[1]، أو كلام مستملح.

ويرى الباحث أنّ الإعجاب إحساس داخلي تنفعل به النفس حين تدرك أمراً مثيراً أو كلاماً مليحاً، فتستجيب له النفس بطرق تتفاوت بحسب ما استقر فيها من الإعجاب والاستملاح.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، (باب الطاء، مادة طرف).

والاستطراف والإعجاب من العوامل المباشرة في بلاغة الوقع ؛ فعندما يقترن عنصر المفاجأة بطرفة فإنَّ الجسد يعبر عن ذلك بحركة ما ، والآليات التعبيرية للجسد متعددة ؛ فقد تكون بالضحك ، أو البكاء ، أو تحريك اليد أو الرجل بطريقة مخصوصة ، وهكذا ، ونلمح ذلك من خلال بعض النماذج :

- كان (مخارق) - وهو من المغنين المشهورين في العصر العباسي - كان يهوى (البهار) - جارية أم جعفر - وشغف بها حتى أفضى غايته في حبها ؛ فتغنى يوماً بصوت عالٍ جوار مسكنها ، وكان ثملاً ؛ فسمعته أم جعفر فدعته وأدخلته دارها وأكرمته ، وخلعت عليه ، وقالت لجواريها : "اضربن معه" ؛ وكان أول ما تغنى به :

أَغيـــــــبُ عَنكِ بِوُدٍّ لا يُغَيِّرُهُ نَأيُ المَحَلِّ وَلا صَـــرفٌ مِنَ الزَمَنِ
فَإِن أَعِش فَلَعَلَّ الدَهرَ يَجمَعُنا وإِن أَمُت فَقَتيلُ الهَـــــمِّ وَالحَزَنِ
قَد زَيَّنَ اللَهُ في عَينَيَّ ما صَنَعت حَتّى أَرى حَسَناً مـــا لَيسَ بِالحَسَنِ

فاندفعت (البهار) تباريه في الصوت وتغني :

تَعتَلُّ بِالشُغلِ عَنّا ما تُكاتِبُنا والشُغلُ لِلقَلبِ لَيسَ الشُغلُ لِلبَدَنِ

فضحكت (أم جعفر)، وقالت : "ما رأيتُ ولا سمعتُ قط أحسن من هذا"، ووهبتْ له الجارية [1].

التناغم بالشعر في عوالم العشق والغرام له سحره الخاص ، ووقعه الحلو في النفوس خاصة إذا كان مرتجلا وليد عاطفة جياشة واستجابة لموقف طارئ ، ويكون الأثر أعمق إذا امتزج بالغناء في مجالس الطرب ؛ فـ(مخارق) عبّر عن إحساسه بوضوح في الأبيات ،

(١) ابن الجوزي ، الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ، أخبار النساء ، تحقيق : إيهاب كريم ، طبعة دار النديم للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، (ط١) ، سنة ١٩٩١م ، ص١٥١ .

وجاءت الطرافة من تجاوب الجارية، وردها على وجده وكلفه ببيت جمعت فيه العتاب والدلال على القافية والوزن نفسه، فكانت الطرافة التي استملحتها (أم جعفر) فانفجرت ضاحكة حيال هذا الشعر والغناء الذي أبرز معاناة العاشقَين الصبَّيْن في كلمات مفعمة بالمعاني المترعة بالحب.

فضحكها يعبّر عن الإعجاب بهذا الشعر الذي يحكي الحوار الغرامي بين هذين العاشقين. وقد عبّرت عن ذلك بقولها: "ما رأيتُ ولا سمعتُ قط أحسن من هذا"، وحين بلغ بها الإعجاب ذروته أهدتْه الجارية؛ فأخذها وانصرف.

- كان البحتري الشاعر فيه كِبر وعُجب؛ فإذا أنشد قال: ما لكم لا تعجبون؟ ما أحسن ما تسمعون! فقام إليه أبو العنبس الصيمري فقال له - بحضرة المتوكل - رداً عليه:

عَنْ أيَ سلـــح تلتقم وبأي كـــــف تلتطم
ذقـــن الوليد البحتري أبي عــبادة في الرحم
أدخلت رأسك في الرحم

فولّى البحتري مغضباً، فقال أبو العنبس: "وعلمتُ أنك تنهزم" - أكمل بها الشطر الثاني من البيت الثالث - فضحك المتوكل حتى فحص برجله[(١)].

الفحص من فُحِصَت الأرضُ، أي: حُفرت[(٢)]، وهو هنا حفر الأرض بالرجل، أو حكّ الرجل بالأرض حتى يحفر فيها. وهذا الضحك إلى هذه الدرجة هو تعبير عن الإعجاب واستطراف هذا الشعر، وتذوّق ما فيه من ازدراء وسخرية، ولاستطراف

(١) الحصري، أبو إسحق إبراهيم علي الحصري القيرواني، جمع الجواهر في الملح والنوادر، تحقيق: علي محمد البجاوي، طبعة دار الجيل، بيروت - لبنان، بدون تاريخ، ص١٦.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، (باب الفاء، ماده فحص).

(المتوكل) هنا عوامل عدّة منها: إعجاب البحتري بنفسه وتعاليه بشعره، وحض الناس على الإعجاب بما يقرضه، وردّ (الصيمري) عليه بسخرية، وكون الردّ شعراً في أسلوب هزلي ساخر مستخفّ بتعاليه، وما تلا ذلك من غضب البحتري، ثم إن ختم (الصيمري) كلامه بشطر البيت الأخير الذي كان مناسباً في إكمال معاني الاستهزاء بالبحتري، بل هو الجزء الأهم في الردّ اللاذع الذي أثار إعجاب (المتوكل) فأغرق في الضحك، وحين كان طاقة انفعاله أكبر فحص برجله.

- ذُكر أنَّ هارون الرشيد أحبَّ أن ينظر إلى (شعيب القلال) وهو يعمل؛ فأُدخل القصر، وأُتي بكل ما يحتاج إليه من آلة العمل؛ فبينما هو يعمل إذ بصر بالرشيد فنهض قائماً. فقال له الرشيد: دونك وما دُعيتَ إليه؛ فإني لم آتك لتقوم إليَّ، بل لتعمل بين يدي. فقال: وأنا - أصلحك الله - لم آتك ليسوء أدبي؛ وإنما أتيتك لأزداد أدباً؛ فأُعجب به الرشيد، وقال له: بلغني أنّك تعرضّتَ لي حين كسدتْ صناعتك؟ فقال: يا سيدي وما كساد عملي في خلال وجهك! فضحك الرشيد حتى غطى وجهه وقال: ما رأيتُ أنطق منه ولا أعيا منه[1].

أعجب الرشيد بكلام (القلال) فضحك حتى استغرق فيه، ثم تكلّم عن عجبه ممّا قاله (القلال).

- خرج هارون الرشيد يوماً متنزهاً فانفرد عن عسكره، والفضل بن الربيع خلفه؛ فإذا بشيخ قد ركب حماراً له، وفي يده لجام كأنه مبعر محشو؛ فنظر إليه فإذا هو رطب العينين؛ فغمز الفضل عليه، فقال الفضل للرجل: أين تريد؟ قال: حائطاً لي. قال: هل لك أن أدلك على شيء تداوي به عينيك فتذهب هذه الرطوبة؟ قال: ما أحوجني

(١) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/ ص٩.

إلى ذلك! فقال: خذ عيدان هواء، وغبار ماء، وورق الكمأة[١] فصيّره في قشر جوزة واكتحل به يُذهب عنك ما تجد. فاتكأ الرجل على قربوس[٢] سرجه فضرط ضرطة طويلة ثم قال: تأخذ هذه أجرةً لوصفتك فإن نفعتنا زدناك، فضحك هارون الرشيد حتى كاد يسقط عن ظهر دابته[٣].

أعجب الرشيد بجواب الرجل، وسرعة بديهته، وطرافة قوله، وإعجابه نابع من سرعة بديهة الرجل سواء من حيث الفعل أو الكلام؛ فالوقفة التي اصطنعها، والتمكن من استحداث هذه الضرطة الطويلة، واعتبارها مكافأة لـ(الفضل) وثمناً لوصفته العلاجية التي هدف منها (الفضل) إضحاك (الرشيد) عن طريق الاستهزاء بالرجل، فكان ردّ الرجل مباغتاً وغير متوقع ولم يخطر ببال الرشيد والفضل اللذَين افترضا في الرجل السذاجة والبساطة، ولكن انقلب السحر على (الفضل)؛ فكان ذلك باعثاً على ضحك الخليفة استمتاعه بما جرى، فقد أفحم الرجل الفضل بن الربيع، وأدهش الخليفة.

- قيل إنّ (عزة) و(بثينة) وفدتا على عبد الملك بن مروان؛ فقال لبثينة: ما رأى جميل فيك حين لهج بذكرك بين النساء كلهنَّ؟ قالت: الذي رأى فيك الناس حين جعلوك خليفة من بين رجال العالمين. فضحك عبد الملك حتى بدتْ له سنّ سوداء كان يخفيها، وأجزل جائزتهما وقضى حوائجهما[٤].

---

(٢) نَبات يُنَقِّضُ الأَرضَ فيخرج كما يَخرج الفُطْرُ، والجمع أَكْمُؤٌ وكَمْأَةٌ.

(٣) القربوس: حنو السرج.

(١) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، أخبار الأذكياء، طبعة دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لينان، (ط١)، سنة ٢٠٠٣م، ص١٨٠.

(٢) ابن الجوزي، أخبار النساء /٤٢ -٤٣.

كان ردّ بثينة على الخليفة بليغاً مفعماً بالمديح وإعلاء الشأن ممّا تطلبه الخلفاء ؛ فاهتزّ عبد الملك لهذا الثناء العظيم الذي يرفعه إلى غاية تتقطّع دونها أعناق الخلفاء ؛ فجاءت الضحكة معبّرة عن الإعجاب بمقالتها ، وضحكته كانت ملء الفم ، نابعة من القلب بدليل (بدتْ له سنّ سوداء كان يخفيها) ؛ بل هو لم يبال بظهور ذلك السنّ الذي كان - في غير هذا الموضع - يكافح في إخفائه.

- جاء طفيلي إلى وليمة ؛ فأُغلق الباب دونه ، فاكترى سلماً فوضعه على حائط الرجل ؛ فأشرف على عيال الرجل وبناته ؛ فقال له الرجل : يا هذا أما تخاف الله؟ رأيتَ أهلي وبناتي ؛ فقال الطفيلي : " لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنّك لتعلم منا نريد" ؛ فضحك الرجل ، وقال : انزل فكلْ [١].

بلاغة المنطق مع حسن الجواب ، وإصابة الاستشهاد مبعث للإعجاب ، وفيه جبر للخواطر المكسورة ، وتهدئة للعواطف الثائرة ، وهذا ما قام به الطفيلي في رده على صاحب الدار ؛ وقصة لوط عليه السلام مع قومه حين حضرته الملائكة في هيئة بشر ، ورغبة قومه في انتهاك حرمة الضيوف ، وحرصهم على ولوج الدار ، وقيامه عليه السلام سدّاً حيالهم ، ونصحه إياهم بالاستمتاع بما أحله الله لهم من النساء ، وحال هذا الطفيلي يشبه حال أولئك من حيث مجيئه من غير دعوة ، وحرصه على ولوج الدار للاستمتاع بالطعام ، وقيام صاحب الدار سدّاً ، وما كان بعد ذلك من احتجاج صاحب الدار على تسوره السور واطلاعه على بناته ، وهنا تمثل الطفيلي ردّ قوم لوط عليه السلام ، فأحدث مفاجأة فنية ، فضحك صاحب الدار ولانت عريكته. وهذا

(١) ابن الجوزري ، أخبار الأذكياء/٤٣٩.

الضحك إعجاب ببلاغة الطفيلي في حسن الاستشهاد بالآية في هذا المقام؛ فأجابه إلى ما يريد رغم استنكار فعله أوّل الأمر.

- أُعجب إبراهيم الموصلي بجارية غنّتْ بين يدي الرشيد، وكان الرشيد قد لحظ ذلك؛ فلما انصرف الموصلي كتب الرشيد رقعة وأرسلها مع خادم إلى الموصلي على اعتبار أنَّ الجارية هي التي أرسلتها إليه، وكان فيها:

قد تخوفتُ أن أموتَ من الوَجْد ولم يَدْرِ مَـــــــنْ هَوِيتُ بما بِي
يا كتابي فاقْرَ السَّــلامَ على مَنْ لا أُسمِّي وقـــــــل له يا كتابي
إنَّ كـــفّاً إيلكَ قـــــد بعثْتني في شَقَاءٍ مُواصَلٍ وعـــــــــذابِ

فأتى الخادم بالرقعة، فقال له الموصليّ: ما هذا؟ قال رقعة من فلانة الجارية التي غنّتْ بين يدي أمير المؤمنين؛ فشتم الخادم، وضربه ضرباً مبرّحاً، ثم ركب إلى الرشيد من ساعته وأخبره بالقصة وأعطاه الرقعة؛ فضحك الرشيد حتى كاد يستلقي، وأمر له بجائزة [1].

الخبر الذي قصه الموصلي لم يكن يتوقعه الرشيد؛ فالرشيد هو من حبك قصة إعجاب الجارية بالموصلي واخترع تلك الأبيات؛ فكان ينتظر إعجاب الموصلي واستجابته للجارية التي افتضح أمر إعجابه بها للخليفة من حيث لا يشعر، ولكن ما جرى للخادم من شتم وضرب مبرّح، ومجيء الموصلي مسرعاً إلى الرشيد ليكشف له خبث الجارية وخيانة الخادم، نال ذلك إعجابه، وجعله يغرق في نوبة من الضحك لم يتمالك حيالها نفسه، ثم تكلم آمراً للموصلي بجائزة. وهذه الضحكة إلى مقاربة

(١) ابن الجوزي، أخبار الأذكياء/٢١٠ -٢١١.

الاستلقاء تعبّر عن الإعجاب بما حكاه الموصلي من أحداث درامية، بادر هو بصناعتها، ثم تركها تصنع نهايتها.

- دخل أعرابي على الحجاج بن يوسف فسمعه يقول: لا تكتمل النعمة على المرء حتى ينكح أربع نسوة يجتمعن عنده. فانصرف الأعرابي فباع كل متاع بيته وتزوج أربع نسوة؛ فلم توافقه منهن واحدة؛ فكانت الأولى حمقاء رعناء، والثانية متبرجة، والثالثة فروك، والرابعة مذكرة. فدخل على الحجاج فقال له: أصلح الله الأمير، سمعت منك كلاماً أردتُ أن تتم لي قرة عين؛ فبعتُ جميع ما أملك حتى تزوجت أربع نسوة؛ فلم توافقني منهن واحدة، وقد قلت فيهن شعراً:

تزوجتُ أبغي قُرّةَ العـــــــينِ أربَعا فيـــــاليتَ أنّى لـم أكـــــــن أتزوَّجُ
ويا ليتنى أعْمَى أصـــــمُّ ولـــم أكُنْ تزوجـــــتُ بل ياليت أنى مُخَـــدَّجُ
فواحـــــــدةٌ مـــــا تعرفُ الله ربَّها ولا ما التُّقَى تدري وَلا مـــــا التَّحرُّجُ
وثانيـــــــةٌ مـا إن تقرَّ ببـــــيتها مـــــــــذكّرة مشهـــــــورة تتبـرَّجُ
وثالثةٌ حمـقاءُ رَعْنَا سخـــــــــيفةٌ فكلّ الذي تأتي من الأمـــــــــر أعوجُ
ورابعـــــةٌ مفـروكةٌ ذاتُ شِـــــرَّةٍ فليستْ بهـا نفسي مَـدَى الدَّهْرِ تُبْهَجُ [1]
فهنَّ طـــــــلاقٌ كلُّـــــهُن بوائنُ ثلاثًا ثلاثًا فاشـــــــــهدوا لا تلجلجوا

فضحك الحجاج حتى كاد يستلقي من سريره، ثم قال له: كم مهورهنَّ؟ قال: أربعة آلاف درهم، فأمر له بثمانية آلاف درهم [2].

---

(١) اِمْرَأَةٌ مَفْرُوكَةٌ :اِمْرَأَةٌ مَكْرُوهَةٌ مِنْ لَدُنِ الرِّجَالِ. شِرَّة: (الشِّرَّةُ) بِالْكَسْرِ مَصْدَرُ الشَّرِّ، أي: كثيرة الشرّ.

(٢) خميسي، عمار خميسي، أخبار الأعراب، طبعة دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، (ط١)، سنة ٢٠٠٧م، ص٢١١ -٢١٢.

العرب أمة تهتز للشعر وتعجب به، ولها ارتياح ونشاط في التفاعل مع البديع منه خاصة؛ فهذا الأعرابي قد ارتكب حماقة وجنى على نفسه في الأخذ بكلام الحجاج بلا روية أو تفكير، فوقع في أمر عصيب، فَقَدَ فيه ماله وتزوج بنساء لم يكتمل فيهن النعمة باجتماعهن عنده كما كان يرجو؛ فأنشد الحجاج هذا الشعر الذي صور فيها مأساته، وأفاض في نعت النساء اللائي اقترن بهن؛ فجاء الشعر بديعاً معبراً عن انتكاسة المسكين، ومما جعل لشعره وقعاً قويّاً في نفس الحجاج كون الأعرابي استجاب لمقولته في ذلك المجلس، والعاطفة الجياشة التي أسبغها على الأبيات، وجميل صفته للنساء الأربع وتصوير معناته في تلك الأيام النحسات معهن؛ فأضحك الأمير حتى كاد يسقط من سريره، ثم تكلم معه فيما أصلحه وأقال عثرته وشفى غيظه.

وهذا الضحك العميق ردّ فعل لإعجاب الحجاج بطرافة الشعر، وحسن تعبير الأعرابي عن المصائب التي أوقع فيها نفسه بحماقته وتسرعه.

- اختصمت امرأة شابة وعمتها العجوز إلى القاضي؛ فقالت المرأة الشابة: هذه عمتي، تربيتُ في حجرها، وزوجتني ابن عم لي، ثم إنَّ ابنة عمتي هذه لما أدركتْ أغرتْ زوجي بالزواج منها؛ فخطبها، واشترطتْ عمتي أن يجعل أمري في يدها؛ فوافق، فأرسلتْ بطلاقي. ثم إنَّ زوج عمتي جاء من سفر فعلم بقصتي فطلبني للزواج فاشترطتُ عليه أن يجعل أمر عمتي في يدي؛ فوافق، فأرسلتُ إلى عمتي بطلاقها. ثم إنَّ زوجي قد مات؛ فنازعتني عمتي في الميراث فأبيت عليها؛ فهو زوجي وهي طالق منه؛ فأغرتْ ابن عمي ووكلته بخصومتي؛ فعرضتُ عليه أن يتزوجني بشرط أن يجعل أمر بنت عمتي في يدي، ففعل فكتبتُ بطلاقها.

فقالتْ العجوز: أصلح الله القاضي؛ أيحلّ هذا؛ أُطلق أنا وابنتي؟ فقال القاضي: نعم، النفس والنكس لك. ثم ركب إلى أبي جعفر المنصور فأخبره القصة؛ فضحك المنصور حتى فحص برجليه ثم قال: أبعد الله العجوز ولا فرّج عنها[1].

إنَّ ما سرده القاضي من أحداث هذه القضيّة العجيبة، ما فيها من عناصر الإثارة والتشويق، والمتعة، والنهاية الـمُرْضِيَة هي التي حركت مكامن الإعجاب والاستطراف في نفس الخليفة، إلى جانب سعة حيلة المرأة الشابة في الثأر لنفسها، واستغلالها كل الظروف المحيطة بها لتحقيق ذلك، والانتصار لنفسها من مكر عمتها العجوز وخبثها؛ فالأحداث سارت متلاحقة وعاصفة، والمفاجآت متنوعة، وتطورت تطوراً دراماتيكياً، ومما زادت النهاية جمالاً احتجاج العجوز عن طريق الاستفهام الإنكاري حول إباحة طلاقها هي وابنتها بتلك الطريقة غير المتوقعة، مع أنها من بدأت بالضيم. فأعجب الرشيد بالقصة، وانفعل بأحداثها، وراقت له النهاية، وما آلت إليه الأحداث، وأرضاه حكم القاضي؛ فضحك حتى فحص برجليه الأرض، والاستعانة بالفحص دليل على طاقة هائلة من الإعجاب، ثم تكلم معلّقاً على حال العجوز، داعياً عليها بما يسوؤها.

- كان بأرض الحجاز رجل له ابنة جميلة يعشقها ابن عم لها؛ فبذل مهرها أربعة آلاف درهم؛ فأبى أبوها أن يزوجه منها، ثم إنَّ البادية أجدبتْ؛ فقبل الأب أن يزوجه إيَّاها مقابل الأربعة آلاف درهم، كان الفتى قد لحقته الفاقة؛ فطلب من والد الجارية أن يمهله شهراً، ولم يكن مع الفتى سوى ناقة؛ فركبها ومضى إلى عبد الملك بن مروان، واحتال في الدخول عليه، فلما مثل بين يديه أنشده قائلاً:

---

(١) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٢٣٠ -٢٣١.

مَاذَا يَقُولُ أَمِـيرُ الـمُـؤْمِنِيْنَ لِمَـنْ أَدْلَى إليْـكَ بِلَا قِـرَى وَلَا سَبَبِ
مُـدّلّهٌ عَقْلُهُ مِـنْ حُـبِّ جَارِيَةٍ مَوْصُوفَةٍ بكَـمَالِ الحُسْنِ والأَدَبِ
خَطَبْتُهَا إذْ رَأَيتُ النَّاسَ قَـدْ لَهَجُوا بِذِكْرِهَا وَالهَوَى يَدْعُـو إلَى العَطَبِ
فَقُلْتُ: لِي حَسَبٌ زَاكٍ وَلِي شَـرَفٌ قَالُوا: الدَّرَاهِـمُ خَيْرٌ مِنْ ذَوِي الحَسَبِ
إنّا نُرِيدُ أُلُـوْفَاً مِـنْكَ أَرْبَـعةً وَلَسْتُ أَمْلِكُ غَـيرَ الحِسِّ والقَتَبِ[1]
فَامنِنْ عَـليَّ أَمَـيرَ الُمـؤْمِنِيْنَ بِهَا واجْمَـعْ بِهَا شَـمْـلَ هَذَا البَائسِ العربِ
فَـمَا وَرَاءَكَ بَعْـد اللهِ مُـطّلبٌ أَنْتَ الرَّجَـاءُ وَأَقْصَى غَايَة الطَّلَبَ

فضحك عبد الملك، وأمر له بجائزة، وقال: هذا صداق أهلك، وزاده أربعة أخرى [2].

إنَّ للشعر بسحره وبيانه تأثيراً في النفوس، ومن الخلفاء من يتذوّقه ويتلمّس أوابد معانيه، ودقيق إشاراته، وللغزل بالنفس علوق، وإليه ترتاح الأفئدة وتطيب، وعبد الملك بن مروان ضالع في الشعر فهماً ونقداً. وقد اتخذ الفتى أسلوباً مؤثراً في أبياته تلك؛ فقد بدأ بالاستفهام الذي يثير في النفس اهتماماً وتشوّقاً، وحكى شأنه، وكيف أنّه عشق حسناء طيبة الذكر، وطلبها اعتماداً على حسبه وشرفه، ولكن والدها كلفه مهرها فوق ما يستطيع، أربعة آلاف درهم؛ ففزع إلى الخليفة ليفك كربه ويحمل عنه ثقل المهر، ثم ختم بمدحه بالجود. وكل هذه اللمحات كانت فنية، في أبيات رصينة، استمع إليها الخليفة باهتمام واستحسان، ثم ضحك إعجابا واستطرافاً، وهذا الضحك دليل إعجاب عبد الملك بحسن مسألة الفتى، واحتياله لغرضه، ورقيق مدحه. وقد أحسّ الخليفة بقوّة هذه العاطفة الجيّاشة؛ فأعطاه ما سأل، وزاده فوق ما كان يصبو إليه الفتى، هذا يدلّ على مبلغ إعجابه بما سمع.

---

(١) القَتَبُ: الرَّحْلُ الصغير على قدر سَنام البعير.

(٢) ابن الجوزي، أخبار النساء/١٨٢ -١٨٣.

- قال إبراهيم الموصلي: استأذنتُ هارون الرشيد أن يهب لي في كل أسبوع يومًا أخلو فيه مع جواريّ، فأذن لي في يوم الأحد؛ فلما كان في بعض الآحاد أتيتُ الدار فدخلتُ، وأمرتُ الحجّاب ألا يأذنوا لأحدٍ عليَّ، وأغلقتُ الأبواب، فما هو إلا أن جلستُ حتى دخل عليّ شيخ حسن السمت والهيئة، على رأسه قلنسوة لائطة، وفي رجليه خفان أحمران، وفي يده عكازة مقمّعة بفضة، وعليه غلالة سكب.

طلب الشيخ من إبراهيم الموصلي أن يغنيه؛ فغناه مُكرهاً، ثم أخذ الشيخ العود فوضعه في حجره، ثم جسّه بمهارة أدهشتْ الموصلي، ثم أخذ في الغناء بصوت طروب وأداء أذهلت الموصلي، ثم وضع العود وقام إلى الدار واختفى؛ فالتمسه الموصلي فلم يقع له على أثر، وسأل عنه الحجاب فقالوا: لم يدخل عليك أحد حتى يخرج؛ فأمر بدابته من فوره وقصد هارون الرشيد، فلما جاءه وقص عليه القصص ضحك الرشيد حتى رفع الوسائد برجليه، وقال: كان نديمك اليوم أبو مرة، وددتُ أنه لو متعنا بنفسه كما متعك[1].

هذه القصة العجيبة بحوادثها المثيرة هي من النوادر، وقد انفعل الخليفة بوقائعها ومفاجآتها؛ فهذا الزائر الغامض أضفى على الأحداث بعداً فنياً دراماتيكياً، وإلى جانب ما حفلت به أحداث القصة من غناء وطرب، ثم الفزع والدهشة التي ألمتْ بالموصلي؛ كلها أمور طريفة أعجبتْ الخليفة فضحك بطريقة تنم عن المتعة والاستطراف إلى درجة أنه رفع الوسائد برجليه، ثم تحدث كاشفا عن شخصية الزائر الغامض الرهيب. إنّ الضحك إلى هذا الحدّ تعبير عن الطرب والإعجاب بالقصّة العجيبة، وأحداثها الغريبة، ونهايتها المثيرة، وما فيها من غناء وطرب وإبداع.

---

(١) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٣٢١.

- كان لرجل من العرب امرأة رعناء، فدخل عليها يوماً فوجدها مغضبة؛ فقالت: مالك لا تشبب بي كما يشبب الرجال بنسائهن؟ فقال: إنّي أفعل! وأنشدها:

تَمَّتْ عُبَيْدَةُ إلاَّ مِـــــنْ مَحَاسِنِها والْمِلْحُ منْها مكانَ الشَّمْس والْقَمرِ
ما خَالفَ الظَّبيَ مِنهَا حِينَ تُبصِرهُ إلَّا سَوالِفُها والجِـــــــيدُ والنَّـظرُ
قُلْ للَّذِي عَابَها مِـــنْ عَائِبٍ حِنقٍ أقِصرْ فرَأْسُ الذي قدْ عِبتَ للحَجَرِ

فضحكت حتى استلقتْ[1].

توهمت هذه المرأة المسكينة الرعناء أنّ زوجها يتغزل فيها وينعتها بالأوصاف الرائعة؛ خاصة عندما سمعت ألفاظاً دارتْ في غزل الشعراء وهي: (الملاحة، الحسن، الشمس، القمر، الظبي، السوالف، الجيد) فاغتبطت بما سمعتْ، وأعجبها ما فهمتْ، فجاء تأثير المعاني قوية في نفسها - حسب ما فهمت - فكانت الضحكة العميقة المجلجلة؛ فخارت معها قواها فخرت مستلقية على ظهرها، وأعطافها تهتز تيهاً وعجباً. فهذا الضحك تعبير عن الإعجاب والاستلطاف والرضا.

- قال الأصمعي: أنشدتُ الرشيد لرجلٍ في امرأته:

لَيْسَ لَهَا حُسْـنٌ وَلَا بَهْجَةٌ مِنَ الـمَهَازِيْلِ الطِّوَالِ السِّمَاجِ
سَوْدَاءُ فِي عَارِضِهَا صُهْبَةٌ كَأنَّ ثَدِيَيْهَا ضُـــــرُوْعِ النِّعَاجِ

فضحك الرشيد، وقال لي: يا أبا سعد ما تعجب الملح إلا عقلاء الرجال[2].

الشعر الطريف يستهوي النفوس ويأسرها، وإذا اشتمل على حسن الوصف وجمال التعبير كان وقعه أقوى وتأثيره في الوجدان أشد؛ فالأصمعي اختار هذا

---

(١) خميسي، أخبار الأعراب/٢٠٦.

(٢) التيفاشي، شهاب الدين أحمد، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، تحقيق: جمال جمعة، طبعة مكتبة الريس للطباعة والنشر، قبرص، (ط١)، سنة ١٩٩٢م، ص٤٨.

النموذج بغرض إدخال البهجة في نفس الخليفة؛ فجاء الوصف في الأبيات غاية في الحسن والطرافة فكان وقع بليغ في نفس الخليفة فضحك، ثم تكلم بما قال. وهذا الضحك تعبير عن الإعجاب بالملحة وانشراحه لها.

- كان المأمون قد حرّم الغناء وشدّد فيه، وكان عليّ بن هشام يسير على جسر ببغداد فلقي إسحاق بن إبراهيم الموصلي، فقال عليّ لإسحاق بكلام يخفيه: قد زارتني اليوم فلانة، وهي أطيب الناس غناءً فبحياتي إلا كنت اليوم عندي، فوعده بالحضور وتفرقا، وإذا بطفيلي يسمع كلامهما؛ فاحتال في الحضور، ودخل دار عليّ وأكل معهم الطعام، وشرب الشراب، واستمع إلى غناء الجارية، ثم انكشف أمره؛ فغضب ابن هشام، وأمر غلمانه بإحضار السياط، والمقارع، والجلادين، ولكن الطفيلي ادّعى أنه صاحب أخبار المأمون وعينه على سره، فقام إليه ابن هشام واعتذر له، وخلع عليه العديد من خلع والهدايا، ورجاه ألا ينكشف أمره عند المأمون، ووصله بثلاثمائة دينار، وبعدها انصرف الطفيلي.

فلما كان من الغد دخل ابن هشام على المأمون فقال المأمون: يا عليّ كيف كان خبرك أمس؟ - على حسب ما يجري السؤال عنه - فتغير لونه، ولم يشك في أن الخبر قد رُفع إليه؛ فطلب الأمان، ثم أخبر المأمون بالقصة من أولها إلى آخرها؛ فضحك المأمون حتى كاد يُغشى عليه، وقال: ما في الدنيا أملح من هذا [1].

لهذه القصة وجوه عدّة للطرافة والإثارة؛ فالواقعة حدثتْ في أعقاب حظر صارم أصدره الخليفة بمنع الغناء، وسعة حيلة الطفيلي سواء من حيث احتياله في دخول الدار واستمتاعه بالطعام والشراب والغناء والطرب، أو من حيث احتياله للنجاة من العقوبة

(١) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٢١ -٢٤.

الوشيكة، إضافة إلى توهُّم ابن هشام أنّ الأمر قد رُفع إلى الخليفة؛ فاعترف مذعوراً بما جرى وأظهر التوبة والندم. فكل واقعة من هذه الوقائع مثيرة للإعجاب، فضحك المأمون حتى كاد يفقد وعيه، ثم تكلم عن استملاحه للأحداث. إن هذه الرواية التي سردها ابن هشام فيها من الملح والمواقف الطريفة، وسعة الحيلة ما أعجب المأمون فضحك بهذه الطريقة التي تعبّر عن غبطته وإعجابه بذلك.

- لما أعطى عبد الملك بن مروان أخاه (بشر بن مروان) ولاية الكوفة أصحبه روْح بن زنباع وقال له: يا بشر، روح مثل عمك فلان؛ فلا تقطع أمراً دونه لصدقه وعفته وصحبته لنا أهل البيت، وكان بشر ظريفاً، أديباً، يحب الشعر، والسمر، والشراب، فراقب روْحاً؛ فقال لأصحابه: أخاف أن يكتب بأخبارنا إلى أمير المؤمنين. فضمن له بعض ندمائه أن يكفيه أمره من غير لوم.

وكان روْح بن زنباع غيوراً، إذا خرج من منزله أغلقه ثم ختمه بخاتم حتى يعود فيفضه بيده؛ فاحتال أحد فتيان بشر بن مروان في الدخول إلى دار روْح في غفلة منه، وكتب تحت درج دهليز بيته:

يا رَوْحُ مَـــنْ لُبَنَّاتٍ وأرمـــلةٍ إذا نَعَاكَ لأهـــلِ المـــــشرقِ النَّاعِي
إنَّ ابنَ مَرْوان قَـــد حَانَتْ منيَّتُهُ فاحـــــتلْ لنفسِك يا رَوْح بن زنباع
ولا يَغُرُّك أمرٌ قـــَـدْ ظَفِرْتَ به واسمعْ هُديتَ مَقالُ النَّاصِحِ الدَّاعِي

ثم احتال الفتى في الخروج؛ فلما أسفر الصبح رأى روح الشعر؛ فراعه ذلك، واعتقد أنَّ هذا الشعر كتبه جنيّ أو ملَك؛ لأنه على يقين أنَّ لا أحد يستطيع دخول داره في غيبته، واستبدّ به الخوف فاستأذن بشراً في الخروج من العراق؛ فأذن له، فلما

قدم على عبد الملك وأخبره القصة، وأنشده الأبيات ضحك عبد الملك حتى فحص برجليه، وقال: ثقلتَ على بشر فاحتال عليك ليخلو له أمره [١].

لا تخلو أحداث هذه القصة من طرافة وإثارة؛ فحيلة صاحب بشر بن مروان كانت غاية في الذكاء والجرأة، والأبيات التي كتبها زادت من عنف ردّة فعل ابن زنباع؛ فقد استولى عليه الخوف، واكتنفه الرعب والفزع، ثم خرج فارّاً إلى الخليفة ونفض إليه جملة الخبر وحدّثه بصوت الخائف المحتضر، والأطرف في الأمر أن روحاً حتى لحظة لقائه الخليفة كان يعتقد أنّ من تسوّر داره وكتب ذلك الشعر هو عفريت من الجن أو ملك من الملائكة. وقد أدرك الخليفة بفطنته حقيقة الأمر في الوقت الذي كان روح وجلاً؛ فضحك الخليفة حتى فحص برجله طرباً، ثم تكلم كاشفاً له حقيقة الأمر. أعجب عبد الملك بالحيلة التي انتهجها بشر، وذلك الشعر الذي كتبه أحد أعوانه، ففاقم من فزع ابن زنباع وخوفه، فعبّر عن ذلك بالضحك إلى درجة فحص الأرض.

- كتب ابن الكلبي صاحب الخبر إلى المتوكل: أنَّ المعروف بابن المغربي القائد قد اجتاز البارحة بالجسر سكراناً، فشخر ونخر وبربر وزمجر وجرجر وبأبأ بفيه، وخرق الشريحة، ومر منصلتاً، وقال: أنا الكركدن فاعرفوني [٢]. فضحك المتوكل حتى

---

(١) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٣٢ -٣٣.

(٢) شخر ونخر: مَدَّ الصَّوْتَ وَالنَّفَسَ فِي خَيَاشِيمِهِ. بربر: أكثر الكلامَ في جَلَبة وصياح وغضب ونفور. جرجر: صوت البعير من حنجرته عند الضجر؛ وصوت الماء الجاري؛ وصوت النار في الموقد؛ وصوت فحل الإبل، وكلها تدل على الجلبة التي أحدثها الرجل. بأبأ: ردّد الباء في نطقه. السريحة: السَّيْر الذي تُشدّ به الخدَمَة فَوق الرُّسْغ. منصلت: مسرع. الكركدن: الكَرَكَدَنّ :حَيَوَانٌ مِنْ رُتْبَةِ وَتَرِيَّةِ الأَظْلاَفِ، ضَخْمُ الجُثَّةِ، قَصِيرُ القَوَائِمِ، غَلِيظُ الجِلْدِ، يَتَمَيَّزُ بِقَرْنِهِ الكَبِيرِ فِي مُنْتَصَفِ رَأْسِهِ، وَلِبَعْضِ أَنْوَاعِهِ قَرْنَانِ، الوَاحِدُ فَوْقَ الآخَرِ، وَيُسَمَّى أَيْضاً وَحِيدَ القَرْنِ.

استلقى [١].

إنّ ما فعله القائد (ابن المغربي) كان - لا محالة - تحت تأثير الخمر، ودهشة السُكر ونشوته، ولكن تكمن الطرافة في وصف صاحب الخبر (ابن الكلبي)؛ فقد استخدم بعض التشبيهات والألفاظ التي أضفت على الرسالة شيئاً من الفكاهة والمرح. والوصف في الرسالة يجعل الخيال يرسم صورة واضحة الملامح لهذا القائد في لحظة سكره، صورة ذات أبعاد فنية مائجة مضطربة بالحركة والأصوات والكلام المضحك، فما كان من الخليفة إلا أن ضحك ولج به الضحك حتى استلقى على ظهره. استظرف المتوكّل تعبير صاحب الأخبار فعبّر عن ذلك بالضحك.

- باع مزيد المديني دابة له؛ فلما كان الغداة أتاه النخاسون وقالوا له: ظهر بالدابة عيب، قال: وما العيب؟ قالوا خصلة من ثلاث: إما الحطيطة [٢]، وإما ردّ الثمن وأخذ الدابة، وإما اليمين بالله أنّك ما تعرف هذا فيه. فأبى عليهم فأخذوه إلى الوالي؛ فأرغمه الوالي على الحلف؛ فقال بعد أن أقسم قسماً طويلاً: لقد كان عندي دواب كلها تخلع أرسانها فكان هذا الحمار يقوم فيعيدها عليها، ويصلحها بفمه قليلاً قليلاً؛ فضحك الوالي حتى فحص برجله، وبُهت النخاسون، وعجبوا منه، وانصرفوا عنه [٣].

أحداث هذه القضيّة طبيعية، وتأتي الطرافة من جهة كلام صاحب الدابّة؛ فلم يكن متوقّعاً، وكان مفاجِئاً وساخراً؛ فقد انبهت النخاسون، والبهت حالة تتجلّى في عدم المقدرة على الكلام لبرهة، مع شحوب اللون وجحوظ العينين، وربما صحبه فغر

(١) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/١٢٢.

(٢) الحَطيطة: ما يُحَطّ من جملة الحِساب فيُنقص منه والجمع: حَطائط.

(٣) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/١٩٣ -١٩٤.

الفاه، أمّا الوالي فقد انخرط في نوبة من ضحك مجلجل، ولما لم يتمكن من إفراغ طاقة الانفعال بالضحك فحص برجله. والضحك وفحص الأرض يعبران عن الإعجاب بحيلة المديني، وحسن تخلّصه، وطرافة احتجاجه لنفسه.

- خرج أبو دلامة مع المهدي وعليّ بن سليمان إلى الصيد؛ فعنَّ لهم ظبي؛ فرماه المهدي فأصابه، ورمى عليّ بن سليمان فأصاب كلب الصيد؛ فقال المهدي لأبي دلامة: قل في هذا شيئاً، فأنشد:

قَد رَمَى المَهديُّ ظَبياً شَكَّ بالسَّـــهم فؤادَه
وَعَلِيٌّ بنُ سُلَـــيمَا نَ رَمَـــى كَلباً فَصَادَه
فَهَنِـــيئاً لَهُـــمَا كُلٌّ امـــــرِئٍ يأكُـلُ زادَه

فاستفرغ المهدي ضحكاً، وأمر له بجائزة [1].

المفاجأة الفنية في البيت الأخير الذي قضى بأن يأكل كل منهما صيده، والأبيات كلها طريفة ولكن البيت الأخير ما كان لخطر إلا ببال شاعر مثل أبي دلامة عُرف بفكاهته وظرفه وموهبته الشعرية وروحه المرحة حتى كان من ندماء الخليفة وخاصته، وقد اهتز (المهدي) طرباً لطرافة الشعر خاصة البيت الأخير - وهي من عجائب أبي دلامة - فاستفرغ ضاحكاً، والاستفراغ في الضحك هو ضرب من الإغراق في الضحك إلى درجة استفراغ الجهد والنشاط حتى يتهالك المرء فلا يتمالك نفسه، وربما سالت عيناه وتسارعت أنفاسه وبدا خائراً مجهداً، هذا أبلغ تعبير عن الاغتباط بروعة التصوير، وطرافة المعنى.

(١) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/١١١ -١١٢.

- قال بعض أصحاب الإخشيد لأبي جعفر الشق: أحبّ أن تبكّر إليَّ في الغداة في حاجة للأمير - أيده الله - وذكر الحاجة، فقال: أنا آتيك أول الناس كلهم. فمضى وأكل وشرب أقداحاً، ونام القائلة؛ فاستيقظ بالعشي؛ فقام مذعوراً - فقد طنه الصباح - فلبس ثيابه وركب إلى الرئيس؛ فاستأذن عليه ودخل وقال: اعذرني أعزك الله فقد ضربني النوم، والله ما صليت الصبح من السرعة، وقد آثرتُ المجيء إليك عليها، وأنا أستغفر الله عليها؛ فضحك الرئيس حتى استلقى، وقال له: قد احتجنا إلى تأخير الأمر إلى الغد إن شاء الله [1].

الاعتذار الذي قدّمه أبو جعفر، واعترافه بعدم أداء صلاة الصبح حرصاً على الموعد، وطلبه الغفران على ذلك نتيجة للوهم الذي غرق فيه في تصوّره للوقت، مع معرفة صاحب الإخشيد بالموعد وإدراكه أنّ الرجل قد وهم، وظنّ أنّ الصباح قد أتى وأنّه قد تأخّر عن الموعد، والرجل مازال يجهل حاله وغفلته، كل هذا جعل الموقف طريفاً، ولكلام الرجل واعتذاره وأسفة ملحة؛ فضحك صاحب الإخشيد حتى استبدّ به الضحك فاستلقى. هذا الضحك يعبّر عن استملاح هذه الحادثة، وما فيها من قلّة عقل الرجل، وغفلته وتوهّمه.

- وصل إلى حضرة سيف الدولة بن حمدان رجل من أهل بغداد يعرف بالمبحث، وكان ينقّر على العلماء والشعراء بما لم يدفعه الخصم ولا ينكره الوهم؛ فتلقّاه سيف الدولة باليمين، وأعجب به إعجاباً شديداً؛ فقال يوماً: أخطأ امرؤ القيس في قوله:

كَأَنِّيَ لَم أَركَـــب جَواداً لِلَذَّةٍ وَلَم أَتَبَطَّن كاعِباً ذاتَ خِلخالِ
وَلَم أَسبَإِ الزِقَّ الرَويَّ وَلَم أَقُل لِخَيلِيَ كُـــرّي كَرَّةً بَعدَ إِجفالِ

(١) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٢٧٤ -٢٧٥.

وهذا معدول من وجهه لا شك فيه. فقيل: وكيف ذلك؟ قال: إنما سبيله أن يقول:

كَأَنِّيَ لَم أَركَــب جَواداً وَلَم أَقُل لِخَيلِيَ كُــــــرّي كَرَّةً بَعدَ إِجفالِ
وَلَــــــم أَسبَإِ الزِقَّ الرَوِيَّ لِلَذَّةٍ وَلَم أَتَبَــــــطَّن كاعِباً ذاتَ خِلخالِ

فيقترن ذكر الخيل بما يشاكلها في البيت كله، ويقترن ذكر الشرب واللهو بالنساء، ويكون قوله: للذة الشرب أطبع منه في الركوب. فبهت الحاضرون، واهتزَّ سيف الدولة، وقال: هذا التهدّي وحق أبي [١].

البهت وما فيه من الدهشة والحيرة والسكون وربّما تغيّر اللون، هو ردّ فعل قوي أصاب الجميع لهذه الحجّة النقديّة الماثلة، والإدراك الدقيق للشعر. وقد اهتزَّ سيف الدولة، والاهتزاز هو غاية الطرب، فيه نشاط وارتياح وسرور تجتاح النفس، وراحة تأخذ بمجامع القلب؛ فينعكس بشراً في الوجه، وابتسامة في الفم، وحركة بالجسد، وربّما قشعريرة تأخذها كمس التيار الكهربائي وهو تعبير عن الإعجاب والاستطراف.

ثانياً: الفرح والاستبشار:

الفرح: البهجة وانشراح الصدر، ولذة في القلب [٢]، والاستبشار: التفاؤل خيراً، وكل خبر سار تتغير معه بشرة الوجه [٣]، وكلاهما شعور تحرّكه عوامل عديدة، فتنفعل النفس، وقد تظهر على الملامح وتنعكس على الجوارح، وتكون ظاهرة ومعبّرة في المواقف المباغتة.

---

(١) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر /٣١٢.

(٢) الشريف الجرجاني، علي محمد السيد الشريف، معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة – القاهرة، بدون تاريخ، باب الفاء مع والحاء والخاء والدال والراء، ص١٣٩.

(٣) الشريف الجرجاني، مصدر سابق، باب الباء مع الشين والصاد والضاد والعين واللام/٤٢.

- لما توفي زوج فاطمة بنت الحسين بن علي أخذتْ تبكي وتلطم وجهها؛ فرآها عبد الله بن عمرو، وكان يحبها حباً جماً، وكان رجلاً وسيماً حتى لُقّب بالمطرف من حسنه؛ فأرسل إليها مع وليدة له: إنَّ لابن عمك أرباً في وجهك فارفقي به، فاسترختْ يدها، واحمرَّ وجهها حتى عرف ذلك جميع من حضرها[١].

الفرحة الممتزجة بالخجل ظهرت على صفحة وجه (فاطمة)؛ حيث تضرجتْ بالحمرة البائنة التي لم تخطئها عين كلّ من رآها في تلك اللحظات، واحمرار الخدّ يعكس الانفعال العاطفيّ الرهيب على الرغم من مهابة الموقف ودقّته.

- قال رجل لامرأته: الحمد لله الذي رزقنا ولداً طيباً، قالتْ: ما رُزق أحد مثلما رُزقنا؛ فدعياه فجاء، فقال له الأب: يا بني، من حفر البحر؟ قال: موسى بن عمران. قال: من بلطه؟ قال: محمد بن الحجاج. فشقتْ المرأة جيبها، ونشرتْ شعرها، وأقبلتْ تبكي. فقال الرجل: مالك؟ فقالتْ: ما يعيش ابني مع هذا الذكاء[٢].

هذه المرأة قليلة العقل، عاطفية، تفهم الأمور بسطحية متناهية؛ فهي مع اعتقادها في ذكاء ابنها رأتْ أنّ الأسئلة التي وجّهها زوجها لابنهما كانت في مسائل صعبة تحتاج الإجابة عنها إلى ذكاء خارق وعلم كثير، ولو لم تكن قليلة العقل لأدركتْ طبيعة تلك الأسئلة وسذاجة ابنها، وعندما سمعت ابنها يجيب بغبائه المطبق وجهله البعيد القرار انفعلتْ انفعالاً عميقاً بما توهمته ذكاءً من الابن، فكان من أثر وقع الإجابات عليها أن شقّتْ ثوبها، ونشرتْ شعرها، وانفجرتْ باكية. هذه الأفعال المتتالية تعبّر عن عمق فرحة هذه المرأة البلهاء بما توهّمته ذكاء ابنها.

---

(١) الشريف الجرجاني، معجم التعريفات/١٣٠.

(٢) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٣١٠.

- عشق عبد الرحمن بن الفرج بن أبي عمار - فقيه أهل الحجاز - جارية رآها عند نخاس يعرضها للبيع مع جملة فتيات؛ فاشتد به الوجد، وذاع أمره؛ فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو أحد أجواد العرب المشهورين؛ فاشتراها بأربعين ألفاً، وحملها إليه في أبهى زينة، وعندما دخل مكة دفع بالجارية إلى عبد الرحمن وقال له: أنا اشتريتها لك فوالله ما دنوتُ منها، فشأنك بها، فهي لك مباركة، وأمر له بمائة ألف درهم، وقال له: خذ هذا المال لئلا تهتم بها وتهتم بها. فبكى عبد الرحمن[1].

عاش فقيه الحجاز (عبد الرحمن) تحت وطأة الوجد والحسرة تعلُّقاً بالجارية التي رآها، وحال ضيق ذات اليد عن شرائها، ثم عندما رآها في أبهى حللها عند عبد الله بن جعفر فلابدّ أنّ الحسرة قد اعتصرته، وساورته الهواجس التي تساور من رأى جارية فاتنة مع رجل اشتراها، ولم يشكّ أنها تحته، ولكنّه فوجئ بابن جعفر يقول له ما لم يكن ينتظر أو يخطر له على بال، وكلّ جملة مما قاله ابن جعفر تحمل بشارة مختلفة وتشكل مفاجأة أقوى من سابقتها؛ فقد أخبره أنّه اشتراها له - وهو خبر مسعد شديد الوقع - وقبل أن يكمل الفقيه انفعاله أردف بأنّه ما دنا منها قط - وهو خبر يدعو إلى الطرب والانتشاء - وقبل أن يصرخ الفقيه من الغبطة أردف بالعطيّة المالية الكبيرة - وهذا خبر يرقص له القلب فرحاً ودهشة - فاختلجتْ كل تلك العواطف في قلبه ففاضتْ عيناه مدرارتين بالدمع الهتون. إنّ هذا البكاء يعبّر عن الفرح والسرور؛ والغبطة بهذه المفاجآت.

---

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء/٥١ -٥٢.

- دخل خالد بن صفوان على العباس السفاح وعنده أخواله من بني الحارث بن كعب، فقال: ما تقول في أخوالي؟ فقام خالد ووصفهم وصفاً عظيماً، فقال السفاح: وصفتَ أبا صفوان فأحسنتَ. فزاد أخواله في الفخر؛ فغضب السفاح لأعمامه فقال: افخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين وأنت من أعمامه؛ فقال: كَيْفَ أَفَاخِرُ قَوْمَاً مَا بَيْنَ نَاسِخِ بُرْدٍ، سَائسِ قِرْدٍ، ودَابِغِ جِلْدٍ، ورَاكِبِ عَرْدٍ [(١)]، دلَّ عَلَيْهِم هُدْهُدٌ، وغَرّقَهُم فَأْرٌ، ومَلَكَتْهُم امْرَأةٌ. فأشرق وجه السفاح [(٢)].

عندما وصف خالد بن صفوان أخوال السفّاح وزاد في الفخر بهم ورفعهم مكاناً عليّا وأوعز السفّاح إليه مجدّداً أن يفخر على أخواله انتصاراً لأعمامه؛ لم يكن يجول بخاطر السفّاح ما قد يقوله (خالد) في قوم كان يمتدحهم قبل قليل، وهم شهود أمامه؛ ففاجأ الجميع بوصف يحطّ من قدرهم، ويقرنهم بمخازٍ معروفة عنهم، وهي مخازي لا تُمحى ولا تُنكر فهو لم يلصق بهم ما ليس فيهم؛ فكان لوقع الكلام في نفس السفّاح أثر حسن جمع بين الطرافة والهجاء في مشاهد درامية؛ فأشرق وجهه. والإشراق هو تألّق الوجه، وتلألؤه وزيادة حسنه بالابتسامة الخفية، وهذا يصوّر سرور السفاح ورضاه عمّا قاله ابن صفوان.

- قال عبد الله بن عكرمة: دخلتُ على عبد الرحمن بن هشام أعوده؛ فقلتُ: كيف تجدك؟ فقال: أجد والله الموت، وما موتي بأشدّ عليَّ من أم هشام، أخاف أن

---

(١) عرد: من معانيه "الحمار".

(٢) الحصري، أبو إسحق إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، بشرح: علي محمد البجاوي، طبعة دار إحياء الكتب العربية، (ط١)، سنة ١٩٥٣م، ١٣/٣.

تتزوج بعدي! فحلفتْ له لا تتزوج بعده، فغشى وجهه نور، وقال: الآن فلينزلنَّ الموت متى شاء[١].

الموت من المصائب الكبرى التي تحلّ بالإنسان، والمرء حين يرقد على فراش المرض، ويحسّ بدنو أجله تنقطع صلته بالدنيا، ويصير شغله الشاغل هو مصيره ما بعد الموت، وما هو مقبل عليه من لحظات وشيكة، ولكن تعلُّق ابن هشام بزوجه في هذه اللحظات الفارقة لدليل على مبلغ حبه لها وتعلُّقه بها، وكان فزعاً من فكرة ارتباطها بغيره بعد مماته، ولكنّها فاجأته بما كان يعزّ عليه؛ حين أقسمتْ - مغلّظة - أنها لن تقترن بغيره بعده؛ فكان لمقالها وقع طيّب وانفعال حسن فأشرق وجهه سعادة واطمئنانا. وإشراق الوجه هو تلألؤه وبهاؤه، ويعبّر هنا عن السرور والسعادة التي جاءتْ صدى للراحة النفسيّة، ثم تكلّم بعد ذلك عن الاستعداد للموت.

- كان فتى من بني عذرة يقال له عمرو بن عود عاشقاً لجارية تسمى ريا بنت الركين؛ فتزوجها رجل منهم يقال له (دهيم)، ونزل بها اليمن، وخرج عمرو في طلبها؛ فلم يقع لها على أثر أو خبر؛ فساء حاله من شدة البرح؛ فخرج به أهله إلى مكة لعله يتعلق بأستار الكعبة رجاءً أن يرحمه ربه ويذهب ما في قلبه من حبها ووجده بها، فلما كان في مشعر (منى) التقى بفتى من اليمن من بني الحارث بن كعب فتعارفا، وشكا إليه خبره، وأنشده ما قال فيها من شعر؛ فرقّ له الفتى ورحمه، وسأله عن صفتها وصفة زوجها؛ فوصفهما له. فقال له الفتى: عندي خبر هذه المرأة وهذا الرجل منذ سنين قليلة؛ فخرّ عمرو ساجداً، ثم سأله عن حالها[٢].

---

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء/١٣١.

(٢) المصدر السابق/١٦٠.

إنّ الحالة النفسيّة المتردّية لهذا الفتى (عمرو بن عود) مركّبة من عدّة مآسٍ؛ فقد خسر حبه للجارية، وتزوجها رجل آخر، وفراره بها إلى جهة لا يعلمها؛ فاجتمعتْ عنده مرارة الخسارة، وألم الفراق إلى جانب جهله بمكانها، وفشل كل محاولاته في العثور عليها على الرغم من سعيه الدؤوب في البحث عنها؛ فكل ذلك جعله كئيباً حزيناً ممزق القلب؛ فاجتاحته التباريح والأشواق إلى ما في قلبه من مواجع فتحطمتْ نفسه، وخابت آماله في رؤيتها، فأمرضه كل ذلك، وجعله نهباً للضياع والتعاسة، ثم فجأة ووسط هذه العواطف الثائرة بشتى الآلام يجد من يقول له إنّه يعرف خبرها؟! فياله من خبر عاش عمراً قاسياً لسماعه؛ فلم يتمالك نفسه فخرَّ ساجداً. هذه السجدة تعبّر عن الفرح والشكر بأن يلمّ بخبرها؛ فهو أمر لم يكن يتوقّعه؛ فاليأس كان قد استولى على قلبه مع ما فيه من الهيام والوجد والبرح.

- قال سعيد الصغير: كان المنتصر بالله في أيام وجّهني إلى مصر في بعض أمور السلطان؛ فاعترضتْ عند بعض النخاسين جارية تامة الحسن، حاذقة بالغناء، فأبى مولاها أن يأخذ مني إلا ألف دينار، ولم تكن تحضرني، ولا وجدتُ من يقرضني، وأزعجني الشخوص، وقد علقها قلبي.

وعندما عاد إلى المنتصر أخبره خبر الجارية؛ فأعرض عنه، وبعث سرّاً إلى مصر مَنْ أحضر الجارية، ثم زينها، وجعلها مع جملة جواريه وقيناته، وعندما جاء سعيد الصغير طلب منها أن تغني؛ فعرفها وأصابه الحزن والقنوط بعد أن رآها في جملة جواري الخليفة، فقال له الخليفة: والله يا سعيد ما اشتريتها إلا لك، ويعلم الله أني ما

رأيتُ وجهها إلا الساعة التي أُدخلتْ عليَّ. فأكبَّ سعيد على رجلي الخليفة يقبلها، ثم دعا له بما أمكنه الدعاء، وشكره وعمن حضر من جلسائه[1].

الانكباب على تقبيل الأقدام فور سماع كلام الخليفة تعبير عن غاية الفرح والسعادة والامتنان، وهو ردّ فعل لما اكتنف سعيد من عواطف شتى؛ فيها الحبّ والشوق، واليأس، بعد أن رأى الجارية مع جواري الخليفة.

ثالثاً: البكاء:

البكاء عاطفة تغمر النفس بفيضها؛ فتسيل له الدموع وقد يصحبه نشيج وهو صوت يدل عليه، والتأثُّر هو دافعه والمحرّك للشعور، والتأثُّر قد يكون تحت وطأة الألم أو الفرح الشديد لأمر عزيز، وغالباً لا يكون الشخص قد أعدّ عدته له في المواقف المفاجئة فتدخل حينئذ في بلاغة الوقع.

- رُوي عن أحمد بن أبي داؤود القاضي إنّه قال: جيء بتميم بن جميل إلى المعتصم أسيراً، وكان قد خرج عليه فلم يكترث للموت، ثم دعا المعتصم بالسيف والنطع، فلما مثل بين يديه نظر إليه، فأعجبه حسنه وقده ومشيه إلى الموت غير مبالٍ، فأطال الفكر فيه ثم كلمه لينظر أين عقله ولسانه من جماله، فقال: يا تميم! إن كان لك عذر فأت به؛ فقال: أما إذ أذن أمير المؤمنين في الكلام فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، يا أمير المؤمنين! جبر الله بك صدع الدين ولمَّ بك شعث المسلمين، وأخمد بك نار الباطل وأنار بك سبل الحق، إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع القلوب، وايم الله

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء /١٧٢ -١٧٣.

لقد عظمت الجريمة، وانقطعت الحجة وساء الظن إلا فيك، وهو أشبه بك وأليق ثم أنشد يقول:

أرى الموتَ بين السيفِ وَالنطْع كامناً يُلاحظني من حيثما أتلفَّتُ
وأكبَرُ ظني أنكَ اليومَ قاتِلي وأَيُّ امرئ ممّا قضَى الله يفلت
وأي امرئ يأتي بعُذْرٍ وحُجّةٍ وسيفُ المنايا بين عينيه مُصْلَتُ
يعزُّ عَلَى الأوسِ بن تَغْلب موقفٌ يَسيلُ عَلَيهِ السَّيفُ فِيهِ ويَسْكُتُ
وما جزَعِي مِنْ أن أموتَ وإنني لأعلمُ أنّ الموتَ شيءٌ موقَّتُ
ولكنّ خَلْفي صبْيةً قد تركتهم وأكبادُهم من حَسْرةٍ تتفتّتُ
كَأنّي أرَاهُم حِيْنَ أُنْعَى إليْهِم وَقَدْ لَطَمُوا حُمْرَ الوُجُوهِ وَصَوَّتُوا

فبكى المعتصم ثم قال: إن من البيان لسحراً، كما قال النبي ﷺ: يا تميم، كاد والله أن يسبق السيف العذل، قد غفرت لك الهفوة ووهبتك للصبية. ثم عقد له ولاية على عمله، وأعطاه خمسين ألف دينار [1].

بدأ هذا الأسير كلامه بمدح الخليفة في عبارات رصينة ارتجلها وهي وليدة الخوف والرجاء، وهي أمداح تعزّز من مكانته الدينية والسياسية، وتمسّ من طرف خفي التوبة من الجرم الذي أوقعه في قبضة الخليفة، ثم ساق اعتذاراً رقيقاً أظهر فيه ضعفه واستحقاقه العقوبة، ثم أردف بأبيات شعرية صوّر فيها دقّة موقفه وقلّة حيلته، وحكى فيها حال أطفاله وما سيتركه خبر مقتله من جزع وشعور أليم. فكان لوقع كلامه أثر رهيب في نفس الخليفة خاصة الأبيات الأخيرة؛ فانفعل الخليفة وسبقت دموعه لسانه، ثم تكلم معلناً العفو، ومشيداً ببلاغته وسحر بيانه، وأمر له بمنصب وأحسن جائزته.

(١) زيدان، إبراهيم، نوادر الخلفاء، طبعة مؤسسة هنداوي، سنة ٢٠١٧، ص٢٤١.

وهذا البكاء تعبير عن تأثّره بما قاله الأسير نثراً وشعراً، وحسن وقع الكلام في نفسه، فتأثّر بحسن توسّله بالشعر، وبليغ الخطاب.

- كانت (الذلفاء) جارية لسليمان بن عبد الملك، وكانت عنده ذات يوم في متنزه؛ فلما جنَّ الليل سمعتْ (يساراً) مغني سليمان يتغنى بهذه الأبيات:

ومَحْـجُوْبَةٍ سَمِعَتْ صـوتي فأرَّقَهَا من آخـــــــــر الليل لما مَلَّهَا السَّهَرُ
لـم يحجب الصَّوْتَ أحْرَاسٌ ولا غَلَق فدَمْعُهَا بأعَالِي الخـــــــــدِّ يَنْحَدِرُ
فِي لَيْلَةِ البـــدْرِ مَـــا يَدْرِي مُعَاينُهَا أوَجْهُهَا عـــــــــندَهْ أبْهَى أم القَمَرُ
لو خُلِّيَتْ لَمَشَتْ نَحْوِي على قَـدَمٍ تَكَـــــــــادُ مِنْ رقةٍ للمَشْيِ تَنْفَطِرُ

فلما سمعت (الذلفاء) صوت (يسار) خرجت إلى صحن الفسطاط تستمع الصوت؛ فجعلت لا تسمع شيئاً من خلق ولطافة قطّ إلا الذي وافق المعنى، ومن نعت الليل واستماع الصوت إلا رأتْ ذلك كله في نفسها؛ فحرك ذلك ساكناً كان في قلبها؛ فهملتْ عيناها، وعلا نشيجها [1].

كانت ردّة فعل الذلفاء عظيمة متدرجة؛ فقد خرجتْ من خبائها التي تستتر فيه، ثم وقفتْ تستمع متأمّلة، ثم انهملت دموعها، ثم تبعتها بالنشيج، وهو الصوت المرتفع المتردّد عند البكاء من غير انتحاب، وهو تعبير عن الانفعال، وتأثّرها بما سمعتْ. فرقّت مشاعرها. فقد كان وقع الشعر عليها قوياً مؤثراً، ملك عليها شعورها وفكرها؛ فقد فجّرت المعاني واللحن والأداء براكين من الذكريات المؤثرة فبكتْ رقة وتأثّراً.

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء/٩٤ -٩٥.

- ذكرت الرواة أنَّ الزبرقان بن بدر قد شكا (الحطيئة) إلى عمر بن الخطاب - ﷺ - بسبب هجاء قاله فيه الحطيئة؛ فلما استوثق عمر -ﷺ - من الهجاء أمر بسجنه؛ فكتب إليه الحطيئة من السجن:

ماذا تَقولُ لِأَفـــــــراخٍ بِذي مَرَخٍ زُغْبَ الحَواصِـــــلِ لا ماءٌ وَلا شَجَرُ [1]

غَادَرْتَ كاسِبَهُم فـــــي قَعرِ مُظلِمَةٍ فَاِغفِر عَلَيـــــــكَ سَلامُ اللَهِ يا عُمَرُ

أَنتَ الإِمَـــامُ الَّذي مِن بَعدِ صاحِبِهِ أَلقَت إِلَيكَ مَقاليـــــــدَ النُّهى البَشَرُ

لَـــــم يوثِروكَ بِها إِذ قَدَّمُـــوكَ لَها لَكِـــــــــن لِأَنفُسِهِم كانَت بِكَ الخِيَرُ

فبكى عمر -ﷺ - وأحضره[2].

إنّ المعاني التي عبّر عنها الحطيئة في الحديث عن أطفاله الصغار الأحداث وحاجتهم إليه وفقدانهم العائل الوحيد بعده، كان لها تأثيراً في نفس الخليفة، ولكن الطريقة التي عبّر بها كان لها الأثر الأبلغ؛ فقد صوّر أطفاله في هيئة (زغب) والزغب هو: ريش ناعم وبريّ يغطي جسم الطائر الصغير، ويكسو جلد الطائر اليافع؛ ليكوِّن غطاءً تحت الريش الخارجيّ[3]، وهي لفظة توحي بالضعف والحاجة إلى الرعاية والتغذية والحماية، وهو العائل الوحيد لهؤلاء الزُغب، ثم صوّر نفسه ملقىً في قعر بئر سحيق مظلم تتنازعه عواطف الأبوة، وتجتاحه مرارة الحسرة والأسف، ثم استجداه ممتدحاً له، مذكّرا إيّاه بأنّه خليفة الرسول ﷺ أرحم الخلق وأرأفهم بهم؛ فتحركت نوازع الخير

(١) المَرْخُ: شجرٌ من العِضاة من الفصيلة العشاريَّة ينفَرِش ويطول في السَّماء ليس له ورقٌ ولا شَوْك، سريع الوَرْي، يُقْتَدَح به، وذو مرخ: اسم لواد في اليمامة وسط الجزيرة العربية، يكثر فيه هذا النوع من الشجر فسمي به.

(٢) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٢٧٧ -٢٧٨.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، (باب الزاي، مادة زغب).

والإنسانية في نفس الفاروق -ﷺ-، فسالت دموع الرحمة، ثم تكلم آمراً بإحضاره وإطلاق سراحه. فقد تأثّر الخليفة بالمعنى الرقيق، والاسترحام اللطيف فرقّ له وأخرجه من السجن.

- وعظ أحد الزهاد أبا جعفر المنصور موعظة طويلة، ومن جملة ما قاله له: "فكيف تصنع بالملك الذي خولك ملك الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل، ولكن بالخلود في العذاب الأليم، قد رأى ما عقد عليه قلبك، وعملته جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحته يداك، ومشت إليه رجلاك، هل يغني عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك، ودعاك إلى الحساب؟"، فبكى أبو جعفر المنصور، وقال: يا ليتني لم أخلق، ويحك فكيف أحتال لنفسي[1].

للمواعظ البليغة تأثير في الأفئدة فتلين له القناة، وتترك في الوعي آثاراً لا تُمحى متى ما وجدت متكلماً لبقاً يجيد حوك الكلام واصطناع المحاجّة. فهذا الواعظ قد عقد من المعاني ما تبلغ قرار نفس الخليفة؛ فذكر له ملك الله تعالى بالقياس إلى هوان ملك الدنيا مهما عظم، وشرح له كيف أنّ الملك الجبار سبحانه وتعالى مطّلع على حركاته وسكناته، في سره وعلانيته. فهاجت مشاعر الخليفة فقد نفعته الذكرى؛ فأرسل الدموع مدرارة على غير إرادة، ثم تكلم ناعياً نفسه متحسّراً على خلقه. هكذا تأثّر المنصور بهذه الموعظة البليغة، فرقّتْ نفسه، وارتجف فؤاده؛ ففاضت عيناه.

- قالت امرأة في ختام نعت أبيها المتوفى: "والله ما جاوزت بوصفي له علمي به، ولا تأتي معرفتي، ففضله أقرب إلى التقصير في وصفه مني إلا الإغراق في تقريظه

(١) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، عيون الأخبار، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر، طبعة المكتب الإسلامي، عمان، سنة ٢٠٠٨م، ٣٣٣/٢.

خوفاً أن يسألني الله عزّ وجل عن ذلك يوم تؤتى كل نفس ما عملتْ وهو أعلم بما يفعلون"، فبكى الناس لقولها[١].

المراثي قديمة في التراث الأدبي للعرب، وهي مما تخشع له القلوب لأنها مرتبطة بذكر الموت والفناء، وفراق الأحبّة، ومتى كان الرثاء من قريب شديد الصلة كانت أبلغ، وإن كانت من امرأة فهي أشد بلاغة وتأثيراً لما جبلت عليه المرأة من رقّة الإحساس والإسراف في العاطفة؛ ولذلك جاء قول هذه المرأة في رثاء أبيها صادقاً مفعماً بالألم والحسرة، فأثّرت فيمن سمعها ففاضت أعينهم. إنّ هذا البكاء الجماعي ينمّ عن تأثرهم بما قالته هذه المرأة وما تكنها لوالدها من مشاعر جيّاشة.

رابعاً: الطرب:

الطرب: خفّة تصيب الإنسان لشدّة فرح أو حزن [٢]، فتسبب هزة عنيفة وقوة خفية تحرّك الجوارح، خاصة إذا كان في الأمور غير المتوقّعة؛ فتكون ردة الفعل قوية ظاهرة في حركة الجسد، وقد يأتي الشخص بفعل دون وعي.

- قيل إنَّ رجلاً دعا المبرد مع جماعة؛ فغنتْ جارية من وراء الستار، وأنشأتْ تقول:

وقَالُوا لَهَا هَذَا حَبِيْبُك مُعْرِضٌ فَقَالَتْ أَلَا إعْرَاضُه أَيْسرُ الخَطْبِ
فَمَا هِي إلَّا نَظْرَةٌ بِتَبَسُّم فَتَصْطَكَّ رَجْلَاهُ وَيَسْقُطُ لِلْجَنْبِ

فطرب كل من حضر إلا المبرد؛ فقال صاحب المجلس: كنتُ أحقّ الناس بالطرب، فقالتْ الجارية: دعه يا مولاي فإنه سمعني أقول: (هذا حبيبك معرضٌ) فظنني

(١) ابن الجوزي، أخبار الأذكياء/٢٧٨.

(٢) الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، باب الطاء مع الباء والراء والعين واللام/١١٩.

لحنتُ، ولم يعلم أنَّ ابن مسعود قرأ: (وهذا بعلي شيخ)، قال: فطرب المبرد من قولها فشق ثوبه[١].

لم يكن المبرد ينتظر مثل هذه الحجة النحوية من مغنية يُفترض فيها مجرّد إجادة الغناء، وضرب العود، والرقص، والتدلُّل والمداعبة، ولكنّه فُوجئ بمعرفتها بالنحو، وبهذه المسألة الدقيقة، بل واحتجاجها بشاهد لا يرقى إليه الشك وهو آي القرآن العظيم فقد باغتته بمقالتها، فجاء ردة فعله قويّاً؛ فشقَّ ثوبه فداءً للنحو وانتصاراً للغة وطرباً بفقه هذه المغنية بالنحو. طرب المبرّد فشقّ ثوبه كردّ فعل قوي من أحد عمالقة النحو حين استحسن علم الجارية بالنحو، وحسن احتجاجها في معالجتها للمسائل النحويّة.

- دخل المهدي على بعض ولاة اليمامة؛ فسأله الوالي عن مجلسه مع (ظبية) واستنشده ما قاله فيها من شعر، وكان ابن ظبية حاضراً؛ فأنشده مهدي بيتين يصفها فيهما بالعفاف؛ فقام ابنها فنزع عن نفسه جبّة خزّ ووشاحاً وألقاهما على مهدي لّما وصف أمه بالعفاف[٢].

إذا أخذنا في الاعتبار أنّ المهدي كان يجهل وجود ابن (ظبية) في المجلس؛ فإنّ ابن (ظبية) يتوقّع أن يصفها المهدي بالمجون أو أن يتغزّل فيها أو يصفها بما لا يرضيه؛ خاصّة وأنّ مثل هذه المجالس عرضة للعبث والمجون بلا حرج؛ فكان يقين ابن (ظبية) ذلك ولكنّه فُوجئ بأن وصفها بالعفاف؛ فطرب وأخذته الأريحية فخلع ثيابه الثمينة وألقاها على المهدي مغتبطاً بما لم يكن متوقعاً. إنَّ خلع الثياب وإلقائها على الشاعر تعبير بليغ عن الطرب والانتشاء اللّذين يدلّان على قوة الانفعال.

---

(١) ابن الجوزي، أخبار الأذكياء/٢٩٠.

(٢) ابن الجوزي، أخبار النساء/٣٩.

- أشرف ابن هبيرة الفزاري من قصره يوماً فإذا هو بأعرابي يرقّص جمله الآل[١] ؛ فقال لحاجبه: إن أرادني هذا فأوصله إليّ، فلما دنا الأعرابي سأله فقال: قصدتُ الأمير؛ فأدخله إليه، فلما مثل بين يديه قال له ابن هبيرة: ما خطبك؟ فقال الأعرابي:

أَصْلَحَك الله قَلّ مـا بيَدي فـما أُطِيق العِيَالَ إذ كَثُروا
أناخ دَهْـرٌ أَلْـقى بِكَلْكِلِه فأَرْسَلُوني إليـكَ وانتظروا
رَجَوْكَ لِلدَّهْرِ أنْ تَكُوْنَ لَهُـمْ غَيْثَ سَحَـابٍ إنْ خَانَهُم مَطَرُ

فأخذت ابن هبيرة الأريحية؛ فجعل يهتز في مجلسه[٢]. هذه الهزّة -وهي حركة الجسم الظاهرة - تعبير عن الطرب لما تضمّنته الأبيات من معاني المديح التي يستطيبها من يُرجى نوالهم، وحسن الرجاء، ولطف المسألة.

- قال إسحق حدثني رجل من قريش فقال: قال لي محمد بن خالد القرشي: ذُكرتْ لي جارية مغنية عند أبي فلان القاضي، فامضِ بنا إليه، قال: فصرنا إليه واستأذنّا فإذا هو قائم يصلي؛ فلما فرغ من صلاته قال: لأمر ما جئتم؟ قلتُ: فلانة. قال لغلامه: يا غلام، عليَّ بفلانة لتخرج، فخرجتْ علينا جارية كأنها مها؛ تتثنى في مشيتها؛ فلما قعدتْ، وُضع عود في حجرها؛ فجسّته، واندفعتْ تغني:

عُوجى عَلَيَّ وَسَلِّمي جَبرُ فِيمَ الصُدُودُ وَأَنتُمُ سَفرُ
مَـا نَلتَقي إلّا ثَلاثَ منىً حَـتّى يُشَتِّتَ بَينَنا النَفرُ

فقام القاضي على أربعة وقال: انحروني فإني بدنة، اهدوني فإني بدنة، والله لا أبيعها بمال يكال، ولا بما يوزن، ولا بالخلافة، ولا بالدنيا؛ انصرفوا[٣].

---

(١) هو تعبير بلاغي يصوّر ما يرى من حركة الدابة واضطرابها ممتزجة بتماوج السراب فتبدو كأنها ترقص.
(٢) خميسي، أخبار الأعراب/٤٦.
(٣) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٣٢ -٣٣.

لقد سرى صوت المغنّية وعذوبة لحنها، وروعة المعنى في نفس القاضي فاستفزه الطرب، وأخذته النشوة؛ فوقف على يديه ورجليه كالبهيمة، وزعم أنّه بدنة جاهزة للنحر أو الإهداء إلى البيت الحرام، وكأنّما خبل، ثم فتح الله عليه بما قال، وطردهم آخر الأمر.

- قال الأصمعي: مررتُ بدار الزبير بالبصرة؛ فإذا بشيخ من أهل المدينة من ولد الزبير يكنى أبا ريحانة جالس بالباب، وعليه شملة تستره؛ فسلمت عليه وجلستُ إليه، فبينا أنا كذلك إذ طلعتْ علينا جارية سوداء، تحمل قربة؛ فلما نظر إليها لم يتمالك أن قام إليها وقال لها: غنّني صوتاً، فقالتْ: إنَّ مواليّ أعجلوني، قال: لابد من ذلك، قالت: أما والقربة على كتفي فلا، قال: فأنا أحملها، فأخذ القربة منها فحملها، فاندفعتْ تغني:

فُؤادي أسيرٌ لا يُفكّ، ومُهـــجَتي تَقَضّى، وَأحـــــزَاني عَلَيكَ تَطولُ
وَلي مهجَةٌ قَرْحَى لِطُوْلِ اشْتِيَاقِهَا إلَيكَ، وَأجْـــــفَانِي عَلَيكَ هُمُولُ
فَدَيتُكِ أَعْـــدَائي كَثـيرُ وَشِقَّتي بَعيـــــــــدُ وَأَشياعي لَدَيكَ قَليلُ
وكُنـــتُ إذا مَا جِئتُ جِئتُ بِعِلّةٍ فأفنَيتُ عِـــــــلاّتي، فَكَيفَ أقُولُ

فطرب، وصرخ، وضرب بالقربة الأرض فشقّها، وقامتْ الجارية تبكي[1].

يبدو أنّ هذا الشيخ يعرف أنّ هذه الجارية تحسن الغناء وتجيده فكان يتربص بها في جلسته تلك ويترقّب مرورها، وعندما سمع منها ذلك الشعر ممتزجاً باللحن والأداء الصوتي، وطرقت المعاني العاطفية قلبه ولامست روعة الأداء وجدانه طرب؛ فضرب القربة المملوءة بالماء الأرض فشقّها في حركة لا إرادية ولكنها تكشف عن طاقة هائلة

(١) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٤٩.

من الانفعال. فالطرب، وهو خفّة تأخذ الإنسان، ثم الصراخ، ثم ضرب القربة بالأرض ؛ كلّ هذه الأفعال أثر الشعر والغناء في نفس الشيخ.

- غنّتْ سلامة الزرقاء بين يدي عثمان بن حيان المري، وهو يومئذٍ والياً على المدينة :

سَدَدْنَ خِصَاصَ الخيمَ لَمَّا دَخَلْنَهُ بِكـــــــــلِّ لبَانٍ واضِحٍ، وجَبِيْن [١]

فنزل عثمان عن سريره حتى جلس بين يديها [٢].

هذه الحركة لا شعورية تبرز جلال المعاني وجمال الصوت ورقّة الأداء، فالوالي لا ينزل عن منزلته التي هو فيها إلا لأمر جلل نادر الحدوث، فهذه الحركة تعبّر عن الطرب والأثر الطيّب الذي تركته هذه المغنية في نفسه.

- قال المغني المعروف إبراهيم الموصلي : دخلتُ داري وأمرتُ الحجّاب ألا يأذنوا لأحد عليَّ، وأغلقتُ الأبواب، فما هو إلا أن جلستُ حتى دخل عليّ شيخ حسن السمت والهيئة، على رأسه قلنسوة لائطة، وفي رجليه خفان أحمران، وفي يده عكازة مقمّعة بفضة، وعليه غلالة سكب. فقال له الشيخ : يا إبراهيم ألا تغنيني صوتاً؟ فأخذ إبراهيم عوداً وغنّى له مكرهاً، فلما وضع العود قال له : لم قطعتَ هزارك؟ فاغتاظ منه الموصلي ؛ لأنَّ الشيخ يناديه باسمه مجرداً فلا يكنيه ولا يسيّده، ثم طلب منه الشيخ أن يغني فغنى الثانية، فقال له الشيخ : أحسنت ! فقال إبراهيم : فكدتُ أشقَّ ثيابي [٣].

إنّ هذا الزائر الغريب لم يكن موضع ترحيب (الموصلي) ؛ فهو قد دخل بغير إذن، وفي وقت كان يرجو فيه أن يخلو بنفسه وأهله ولا سيما أنّه شدّد في منع دخول الزوّار

---

(١) خصاص : خَرْق، ثُقْب أَو فُرْجَة. الخيم : الخيمة.

(٢) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٥٥.

(٣) المصدر السابق/٣٢٠.

عليه، أضف إلى ذلك أنّ الزائر كان ساخراً لا يقول ما يرضي (الموصلي)، ولا يلقبه في مناداته بلقب يليق به بوصفه مغنياً عظيماً في عصره، وقد استخفّ بأدائه الغنائي بطريقة لاذعة مما جعل (الموصلي) ضجراً لا ينتظر منه أن ينطق بكلام تطيب به النفس، وفجأة استحسن أداءه فقال له: "أحسنت". فوقعت هذه الكلمة على الموصلي برداً وسلاماً فانتشى بها وطرب فكاد يشقّ ثيابه. وشقّ الثياب أو مقاربته في مثل هذه الأحوال يُعتبر من ردود الفعل العنيفة التي تصوّر الطرب الجارف، والغبطة.

خامساً: الحزن والحسرة:

الحزن شعور من الغمّ والكدر والضيق يلم بالنفس فيكدّرها، والحزن كبقيّة المشاعر الأخرى تنفعل به النفس في الباطن ثم تترجمها الجوارح في حركة خارجية غالباً، والحسرة شدّة اللهفة[١] على أمر حتى يبقى القلب حسيراً لا موضع فيه لزيادة، وحين يفاجأ بأمر مباغت تظهر في ردود الفعل.

- جلس رجل عذري يدعى (أبا مسهر) إلى عمر بن أبي ربيعة يحدثه عن فتاة لقيها في الطريق فجالسته في ظل دوحة، وقد شربتْ من الخمر، وقال أبو مسهر: فجلستُ والله تحدثني ما أفقد من أنسها شيئاً حتى مالتْ عليَّ الدوحة سكرى، فاستحسنتُ والله يا ابن أبي ربيعة الغدر وزين في عيني، ثم إنَّ الله عصمني. فقال له عمر: والله يا أبا مسهر، والله ما كان يحسن الغدر إلا بك. فإذا به قد اخضلّتْ[٢] لحيته بدموعه باكياً، فقال عمر: والله ما قلتُ هذا إلا مازحاً[٣].

---

(١) الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، باب الحاء مع الراء والزاي والسين والشين/٧٧.

(٢) اخضلَّت لحيتُه بالدُّموع: ابتلَّت.

(٣) ابن الجوزي، أخبار النساء/١٦٩.

لقد كان لمقالة عمر أثر بالغ في هذا العذري الذي لا يغدر بمن يحبّ؛ فهو عفيف المئزر، يسمو بعاطفة الحبّ إلى عوالم مثاليّة، فأحسّ بالحزن والحسرة لما قاله صاحبه؛ فانهملتْ دموعه وغمرت لحيته، وكان ذلك في زمن قياسي؛ فقد تفاجأ ابن أبي ربيعة بالدموع تفيض على اللحية وتبللها ممّا راعه، وجعله ينحو نحو التخفيف من وطأة مقالته؛ فزعم أنّه كان يمزح.

- ضلّتْ إبل لرجل من بني ضبة فانتهى إلى بلاد بني سليم؛ فلما كان يبحث عنها بين قطعان إبلهم لمح جارية مشرقة؛ فقال لها: هل لك بعل؟ قالت: كان والله فدُعي فأجاب إلى ما منه خَلَف، ونعم البعل كان. فقال لها: فهل لك في بعل لا تذم خلائقه، ولا تُخشى بوائقه؟ فأطرقتْ ساعة ثم رفعت رأسها وعيناها تذرفان دموعاً، ثم أنشدتْ أبياتاً من الشعر[1].

تلقّتْ هذه الجارية طلب الزواج من الرجل الضبي بالرفض، ولكنّها أوصلت رفضها على مراحل؛ فقد أطرقتْ، وهي لحظة جليلة في اجترار الذكريات بمرارتها، ثم رفعتْ رأسها والدموع تسحّ من عينيها حزناً على بعلها المتوفّى، ثم أقدمتْ على المرحلة الثالثة والحاسمة وهو الردّ الشفهيّ شعراً.

- قال أبو الهذيل العلّاف: كان يختلف إليّ فتى من أهل الموصل، حسن السمت، نيّر الوجه، نقي الثياب، فكان يصمت في المجلس، وإذا أتاه النهوض قال: استغفر الله لي وللمتكلم، ثم يمضي. قال: فنبُل في عيني، ولاط بقلبي، وحلا في صدري؛ فذكرتُ قول الحكيم في كتاب جاودان خرد "يحرم على السامع تكذيب القائل إلا في ثلاث هن غير الحقّ: صبر الجاهل على مضض المصيبة، وعاقل أبغض من أحسن

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء/١١١.

إليه، وحماة أحبتْ كنة". فقال الفتى لولا حفظي نظير هذه الكلمات وسماعهن من ثقة؛ فاشرأببنا إليه قلنا: وما ذاك؟ يرحمك الله! وظننا أنه سيأتي بأحسن منهن؛ فقال: حدثني أبي عن جدي أنه قرأ في بعض كتب الحكماء: ليس الجائع كالشبعان، ولا النائم كاليقظان، ولا المكسي كالعريان. قال العلاف: فطأطأتُ رأسي، وجعل أصحاب ينظرون إليَّ وإليه، وكرهتُ أن أسأله عن شيء بعد هذا[1].

كان لكلام الفتى أثر سالب في نفس العلاف وجلسائه؛ فالعلّاف قد جعل للفتى في نفسه مكانة جليلة، ولم يكن يشكّ في رجاحة عقله، وعندما شرع الفتى في الكلام تطلّع العلّاف إلى معرفة علم هذا الفتى الذي بدا فيه وقار العقلاء وهيبة العلماء؛ فكانت الصدمة بمقالته، وكان وقع الهراء الذي تفوّه به أليماً مخيّباً للرجاء، وبدا ذلك في طأطأة الرأس والصمت المطبق التي تعبّر عن الحسرة والحزن. وهذه الطأطأة خير ردة فعل عن خواء عقل هذا الفتى الذي كانت له مكانة عظيمة في نفس العلّاف قبل أن ينطق بذلك الهراء، ولسان المرء ميزان عقله.

- خرج الفرزدق في طلب عبدٍ له أبق، وأصابه مطر جوار ديار بني حنيفة؛ فنزل عندهم، فطلعت عليه جارية كأنها القمر فحادثته في الشعر، ثم سألته: أين تقصد؟ فأجابها: اليمامة. فقال الفرزدق: فتنفست نفساً وصل إليَّ حرّه، ثم قال لها: أذات خدر أم ذات بعل؟ فبكتْ، فأعاد عليها السؤال، فكانت مستغرقة في بكاها، ثم أنشأتْ تقول:

يخيَّل لي هَيَا عمرُو بنَ كَعْبٍ كأنك قد حُمِلْتَ على سريرِ
فإنْ يكُ هَكَـذا يا عَمْرو إنِّي مُبكِّرةٌ إليكَ إلى القـــــبورِ

(١) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٩١.

ثم شهقتْ شهقة فماتتْ[١].

حين علمت الجارية الأرض التي يقصدها الفرزدق وهي اليمامة أطلقتْ زفرة قوية كاللهيب حتى لفح الفرزدق حرّها، وهذا تعبير عميق عن شوق وحسرة، ومشاعر خوف بعدم اللقاء بعد الفراق الممضّ، فقد رحل من تحبّ إلى اليمامة، وأهاج قول الفرزدق تلك المشاعر. وقد ازدادتْ تلك المشاعر التهاباً عندما سألها أهي عزباء أم متزوجة؛ فبكت بحرقة؛ فأجابته بالدموع التي تحكي قصّة الفراق الأليم، الذي بات سمّاً يمزق أوصالها، ثم جاء الكلام شعراً، وهذا الشعر أهاج مدّاً هائلاً من طوفان العواطف الجياشة فكانت الشهقة المفضية إلى الموت.

- حمل غلام خمسمائة دينار عيناً وورقاً، وجعلها في فوطة، وانطلق يريد مدينة (الأُبُلَّة)[٢]، فبحث عن ملّاح يحمله إلى هناك؛ فوجد ملاحاً فحمله ومعه رجل آخر ضريراً، وعندما قارب المركب (الأبلة) انتبه الغلام فلم يجد الفوطة التي أخفى فيها الدنانير فاضطرب وصاح وقال للملاح: كانت بين يدي فوطة فيها خمسمائة دينار، فلما سمع الملاح لطم وبكى وتعرّى من ثيابه[٣].

إنّ قول الغلام ينطوي على اتّهام بالسرقة، وهي بمثابة شكوى تستدعي التبرئة؛ فليس معه في القارب سوى رجل ضرير والملّاح، والضرير ليس موضع شبهة، فالتهمة ألصق بالملاح، وكان بإمكانه وبكل هدوء أن يتعرّى من ثيابه ليثبت براءته؛ ولكنّ باغته الفتى بما قال، فأثّر فيه فصرخ وبكى، ثم أقدم على إثبات براءته. ويعبّر اللطم

---

(٢) ابن الجوزي، أخبار النساء/١٢٢.

(١) الأُبُلَّة: مدينة بالعراق. الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، باب الهمز مع الباء، ٧٦/١.

(٢) ابن الجوزي، أخبار الأذكياء/٢٤٨.

والبكاء في هذا السياق عن الحسرة والصدمة لاتّهامه بسرقة الفوطة، وأمّا التعرّي من الثياب لإعلان البراءة والإيحاء بأنّه لا يحمل معه شيئاً يمكن أن يخبّئ فيه المال.

- قال نصر بن سيّار بخراسان لأعرابي: هل أُتخمتَ قط؟ قال: أما من طعامك وطعام أبيك فلا. فيقال إنّ نصراً حُمَّ من هذا الجواب أياماً، وقال: ليتني خرستُ ولم أفه بسؤال هذا الشيطان[١].

لا شكّ أنّ جواب الأعرابي كان مباغتاً، وفيه إشارة إلى مذمة بخل والد (نصر)، وهي صفة ذميمة تزري بالعربي وتحطّ من قدره، ثم إنّ جواب الأعرابي لم يراع منزلة في قومه الرجل ومكانته بين جلسائه، وربما كان (نصر) يفترض في الأعرابي البساطة والسذاجة، وربما قصد من السؤال والإجابة المنتظرة منه العبث لأجل التفكّه والمرح، ولكن جاء ردّه كالصاعقة، فبهت (نصر) وأصابته الحمّى، وهي ارتفاع درجة حرارة الجسم عن حدّها الطبيعي، ويصحبه عرق يرفض به الجسم. وهذه الحمى تعبّر عن الحسرة والندم والإحساس بالحرج.

- قال أعرابي من فزارة: عشقتُ امرأة من طي؛ فكانت تظهر لي مودة، فوالله ما جرى بيني وبينها شيء من ريبة، غير أني رأيتُ بياض كفها ليلة؛ فوضعتُ كفيّ على كفّها، فقالتْ: مه، لا تفسد ما صلح، قال: فارفضضتُ عرقاً من قولها، فما عدتُ لمثل ذلك[٢].

---

(١) خميسي، أخبار الأعراب/١١.

(٢) القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، بهجة المَجالس وأنس المُجالس وشحذ الذاهن الهاجس، تحقيق: مرسي الخولي، طبعة دار الكتب العليمة، بيروت - لبنان، بدون تاريخ، ٢٥٢/١.

من يعش اللحظات العاطفية مع من يحبّ، في أجواء تسودها نشوة المودّة وحرارة العاطفة والسمر، والليل يسترهما بغلالته؛ فإنّ ملامسة كفّ المحبوب في نشوة الغرام يلقى تجاوباً وارتياحاً ومزيداً من دفق المشاعر ودفء الإحساس، وتعزّز حرارة اللقاء، ولكن هذه المرأة فاجأت عشيقها الذي وضع كفّه على كفّها بأن طلبت منه الكف عما أقدم عليه ونهته عن الإفساد؛ فانفعلت نفسه خجلاً وحسرة وخوفاً فتفصّد عرقاً. وهكذا سال منه العرق متتابعاً غزيراً دون توقف تعبيراً عن الندم على ما فرط منه.

- خرجتْ حميدة بنت عمر بن عبد الله بن حمزة القرشية برفقة زوجها إلى الشام مفارقة أهلها في مكة؛ فخرجتْ يوماً بدمشق مع نسوة فمرتْ بفتى جالس على باب منزله، وهو يتمثل بهذه الأبيات:

أَلَا لَيْتَ شَعْـــــــرِي هَلْ تَغَيّرَ بَعْدَنَا صُحُـوْنُ المُـصَلَّى أمْ كَعَهْدِي القَرَائنُ [1]
وَهَلْ أدْوُرٌ حَـــــوْلَ البِلَاطِ عَوَامِرٌ مِنَ الحَيِّ أمْ هَـــــلْ بِالـمَدِينْة سَاكِنُ [2]
إذَا لَـمَعَتْ نَحْـــوَ الحِجَازِ سَـــحَابَةٌ دَعَـــــــا الشَّوْقَ مِنِّـي بَرْقُهَا المتَيَامِنُ
وَمَا أَشْخَصَتْنَا رَغْـــــبَةٌ عَنْ بِلَادِنَا وَلَكَـــــــــــنَّهُ مَا قَـدَّرَ اللهُ كَائنُ

فلما سمعتْ المرأة ذكر بلدها، وعرفتْ المواضع؛ تنفّستْ نفساً صدع فؤادها فوقعتْ ميتةً [3].

---

(١) صحون المصلّى: موضع بالمدينة. معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج٥/ص١٤٤.

(٢) البلاط: مكان بالمدينة المنورة، بين الحرم النبوي وسوق المدينة. الحموي، معجم البلدان، ٤٧٧/١.

(٣) ابن الجوزي، أخبار النساء/١١٦.

إنَّ التنفّس بهذه الطريقة العنيفة اللاإراديّة تعبير عن جيشان العواطف، وتصاعد الانفعال، نتيجة لما تفجّر في نفسها من براكين الحسرة لمفارقة بلدها وشوقاً إليه. فتداعتْ الذكريات بقوّة، ومن ثم بلغت الأشواق حدّاً لم يتمكّن قلبها من احتمالها. فكانت النتيجة انشقاق القلب وانفطاره وخروج الروح.

سادساً: الإفحام والخجل:

الإفحام هو الإسكات بالحجة فيعجز المرء عن الكلام، وتُظهر في المرء علامات البهت والانقطاع والاستسلام والاسترخاء، والخجل: اضّطراب بسبب الحياء، وقد ينعكس احمراراً في الوجه أو إطراقاً وكلها بطريقة لا إرادية.

- أُتي إلى المنصور بخارجي قد هزم له جيوشاً؛ فأقامه ليضرب عنقه، ثم قال له: يا ابن الفاعلة! مثلك يهزم الجيوش؟ فقال له الخارجي: ويلك وسوءة لك، بيني وبينك أمس القتل، واليوم القذف والسبّ! وما كان يؤمنك أن أرد عليك وقد يئستُ من الحياة فلا تستقيلها أبداً؟ فأطرق المنصور وأمر بإطلاق سراحه[1].

كان المنصور مزهوّاً بالقبض على هذا الخارجيّ، وتحدث إليه شامتاً مع استعلاء لا يخطئوه السامع، وهو في عنفوان ملكه وبين رجاله، واعتقد أنّ الخارجيّ سينكسر أو يصمت، أو يستجديه للعفو عنه شأن من يكون في مثل موقفه، ولكنه باغته بكلام صُعِقَ له المنصور وزُلزل زلزالاً شديداً؛ فقد تكلّم الخارجي بحنكة وثبات وبشيء من الحكمة والأناة، فانهزم المنصور لمنطق الرجل؛ فأطرق استحياءً وانكساراً، فقد

(١) ابن الجوزي، أخبار الأذكياء/١٩٢.

أُفحم، ثم تكلّم آمراً بإطلاق سراحه والعفو عنه. إنّ هذا الإطراق تعبير عن الانكسار والخجل؛ فقد استحيا الخليفة من قوة ردّ الخارجي.

- مرّتْ امرأة بقوم من بني نمير فرشقوها بأبصارهم، وأداموا النظر إليها؛ فقالتْ: قبّحكم الله يا بني نمير؛ فوالله ما أخذتم بقول الله تبارك وتعالى: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) (النور: ٣٠)، ولا بقول الشاعر:

فَغُضَّ الطَرفَ إِنَّكَ مِن نُمَيرٍ فَلا كَعباً بَلَغتَ وَلا كِلابَا

فأطرق القوم مما قالت[1].

هذا الإطراق يعبّر عن الانكسار، والخجل، والإحساس بالصغار والخزي، فَهُم لم يمتثلوا أوامر الشرع الحنيف في إعطاء الطريق حقّه بغضّ البصر، وممّا زاد في نكايتهم تذكيرهم ببيت جرير في الراعي النميري الذي ذهب مثلاً يخزي بني نمير في كلّ حين؛ فانطبق على حالتهم الماثلة؛ فقد زجرتهم بما قالتْ، فارتدعوا، فأطرقوا منكسرين.

- خرج عثمان بن عيينة إلى أصحاب الحديث وهو ضجر فقال: أليس من الشقاء أن أكون جالستُ ضمرة بن سعيد، وجالس ضمرة أبا مسعود البدري، وجالستُ عمرو بن دينار، وجالس جابر بن عبد الله، وجالستُ الزهري، وجالس أنس بن مالك - حتى عدَّ جماعة - ثم أنا أجالسكم؟ فقال له صبي حدث في المجلس: والله لشقاء من جالس أصحاب رسول الله -ﷺ- بك أشدَّ من شقائك بنا. فأطرق عثمان، وتمثّل بشعر أبي نواس:

---

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء/١٤٧.

خَـــــــــــــلِّ جَنبَيكَ لِرامٍ وَامضِ عَنهُ بِسَـــــــــــــلامِ
مُت بِداءِ الصَمـــــــــــتِ خَيرٌ لَكَ مِـــــــــن داءِ الكَـــلامِ "[1]

استصغر عثمان بن عيينة جلساءه من أصحاب الحديث، وافتخر عليهم - بكل وقاحة - بمن جالسهم من كبار التابعين؛ باعتبارهم أشرف وأرفع مكانة من جلسائه الماثلين، وازدراهم غاية الازدراء؛ فباغته الصبي الحدث بكلام أسقطه من سماء كبريائه ونكّس رأسه في التراب؛ فأطرق لذلك السهم النافذ، ثم تمثّل بذلك الشعر. هذا الإطراق وما يتضمّنه من إمالة الرأس إلى الصدر وخفض البصر إلى الأرض، والانقطاع عن الكلام تعبير عن الإفحام والخجل، بل والندم عمّا فرط منه، ثم انطلق لسانه بشعر أبي نواس.

- قال المتوكل يوماً لجلسائه: أتدرون ما الذي نقم المسلون على عثمان -ﷺ -؟ قالوا: لا. قال: أشياء منها: أنه قام أبو بكر -ﷺ - دون مقام الرسول -ﷺ - بمرقاه، ثم قام عمر -ﷺ - دون مقام أبي بكر بمرقاه؛ فصعد عثمان ذروة المنبر. فقال عبادة: ما أحد أعظم منّة عليك يا أمير المؤمنين من عثمان. قال: وكيف؟ ويلك! قال: لأنه صعد ذروة المنبر، فلو أنه كلما قام خليفة نزل عمن تقدمه كنتَ أنتَ تخطبنا من بئر جلولاء[2]، فضحك المتوكل ومن حوله[3].

ظنّ المتوكل أنّه جاء بتعليل منطقي لبعض أسباب الثورة على الخليفة الراشد عثمان بن عفان -ﷺ - ولكنه فوجئ بأمرين لم يكن يتوقّعهما، الأولى: ما ذكره (عبادة) من أنّ فعل الخليفة الراشد (عثمان) كان امتناناً عليه، ومثل هذا الادّعاء يحتاج إلى

---

(٢) ابن الجوزي، أخبار الأذكياء/٢٦٠.

(١) بئر في منطقة جلولاء في العراق.

(٢) ابن الجوزي، أخبار الأذكياء/١٩١.

تفسير، وقد امتلأ قلب الخليفة غيظاً وحنقاً؛ فسأله عن السبب وهو يتميز من الغيظ. والثانية: تفسيره لقوله السابق، وهو ردّ طريف وتفسير بديع؛ فيه المنطق والدعابة وروح الفكاهة، فكان من أثر وقع كلامه أن لم يتمالك الجميع أنفسهم فضحكوا بمن فيهم الخليفة. وهذا الضحك يعبّر عن إفحام المتوكّل بالحجّة، وإحساسه بالخجل من هذه الحجّة الدامغة والتمثيل الطريف.

ووجه الطرافة أنّ المتوكل هو الخليفة العباسي العاشر، حكم ما بين عامي (٢٣٢هـ - ٢٤٧هـ) وقد سبقه عدد من خلفاء بني أميّة الذين دام ملكهم زهاء التسعين عاماً اعتلى فيه العرش الأموي قرابة الأربع عشرة خليفة؛ فلو كل خليفة ممن سبق المتوكل من أمويين وعبّاسيين قام دون من سبقه في المنبر لكان ترتيب المتوكل عميقاً في باطن الأرض أو ما يقارب عمق بئر جلولاء.

- تظلّم أهل الكوفة من عاملها إلى المأمون؛ فقال: ما علمتُ في عمالي أعدل منه. فقال رجل من القوم: يا أمير المؤمنين! فقد لزمك أن تجعل لسائر البلدان نصيباً من عدله حتى تكون قد ساويتَ بين رعاياك في حسن النظر؛ فأما نحن فلا تخصنا منه بأكثر من ثلاث سنين. فضحك المأمون، ثم أمر بصرف العامل[1].

إنّ الحجة حين تمتزج بالفكاهة وتقترن بالمنطق والحصافة في الطرح، ومراعاة مقام المخاطب تكون لها وقع طيّب في النفس، تثير الإعجاب والرضا، وهذا ما جعل لكلام الرجل من وفد أهل الكوفة وقعاً في نفس المتوكل؛ فضحك من ردّ الرجل وحلاوة منطقه. كان لمنطق الرجل وحسن حيلته وتلطّفه في الردّ على كلام الخليفة أثر في إفحام المأمون؛ فضحك، ثم أجابهم إلى ما طلبوا.

---

(١) ابن الجوزي، أخبار الأذكياء/١٩٨.

- كان أبو بكر سيبويه المصري رجلاً به لوثة، وكان سريع الجواب، حاضر البديهة، وكان الصبيان يتولعون به، وإذا مرّ يصيحون به: "يا خازن! يا خازن! اخرج عليه"؛ فكان يغضب، فقال له ذلك يوم صبي - وأبو بكر المعيطي حاضراً - فضحك المعيطي؛ فقال سيبويه للصبي: ضرب الله عنق الخازن كما ضرب رسول عنق عقبة بن أبي معيط يوم بدر على الكفر، وضرب ظهر أبيك بالسوط كما ضرب علي بن أبي طالب ظهر الوليد بن عقبة بن أبي معيط على شرب الخمر، وألحقك يا صبي بالصبية [1]. فقام المعيطي كأنما نُشر من قبر [2].

أحسّ المعيطي بالخجل والخزي والحرج من هذا التعريض؛ فلم يجد جواباً، فقام كالمبعوث من قبر. والمبعوث من القبر -في خيال الناس - يكون شاحباً مسرعاً، عليه غبار وآثار الدفن وظلمة القبر، ويبدو فزعاً؛ فلا يشبه البشر في أحوالهم العادية؛ فقد تغيّرت هيأته.

حركة الجسد المعنويّة:

قد تأتي ردّة الفعل ظاهريّة يمكن ملاحظتها كما رأينا في الأمثلة السابقة، وقد تأتي معنويّة أو داخليّة لا تدرك إلّا من خلال إفصاح المتلقّي عمّا أحسّ به نتيجة لوقع الكلام، ونسوق على ذلك بعض الشواهد:

- روى أبوبكر بن دريد قال: أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال: بينا أنا بحمى (ضرية) إذ وقف عليَّ غلام من بني أسد في أطمار ما ظننته يجمع بين كلمتين، فقلتُ: ما اسمك؟ قال: حريقيص. فقلتُ: أما كفى أهلك أن يسموك حرقوصاً حتى حقروا

---

(٢) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٢٢٧.

(٣) أراد بقوله للصبي: "وألحقك بالصبية" قول النبي -ﷺ- لعقبة بن أبي معيط وقد قال له عندما أمر بقتله: فمن للصبية يا محمد؟ قال: النار.

اسمك! فقال: إنَّ السقط ليحرق الحرجة. قال: فعجبتُ من جوابه فقلتُ: أتنشد شيئاً من أشعار قومك؟ قال: نعم، أنشدك لمرّارنا. قلتُ: افعل. فقال:

سَكَنوا شُبُيْثاً وَالأَحَصَّ وَأَصبَحَتْ نَزَلَتْ مَنازِلَهُـــــــم بَنو ذُبيانِ
وَإِذا يُقــالُ أَتَيتُمُ لَم يَبرَحـــــوا حَـــتّى تُقيمَ الخَيلُ سُوقَ طِعانِ
وَإِذا فُلانٌ مـــــاتَ عَنْ أُكْرومَةٍ رَقُعَوا مَعـــــــاوِزَ فَقدِهِ بِفُلانِ

قال: فكادت الأرض تسوخ بي لحسن إنشادهن وجودة شعره [١]. أُعجب الرجل بالشعر والإنشاد، فانفعل بذلك غاية الانفعال، ولم تظهر ردّة فعله إلّا من خلال إفصاحه هو عن ذلك. فقد اعتراه شعور لم يدرك كنهه، ولكنّه أحسّ بأنّ الأرض تسوخ تحته، أي: أحسّ أنّه يغوص في باطن الأرض، وهو إحساس يحكي الذهول ودهشة السُكر لفرط الإعجاب.

- قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: عنّتْ لي في بعض الطرقات جارية استملحتها فكلمتها، فوّلتْ عنّي ومرّتْ بين يدي غير حافلة بي، لا متلفتة إليّ؛ فتبعتها حتى وافت باب قصر شاهق فأخذتْ بعضادتيه، ثم كشفتْ عن وجه كالقمر وأنشأتْ تقول:

الآنَ لَمَّا عَـــلاكَ الْمَشيبُ وَأَبْصَرْتَ فِي الْعَارِضَـيْنِ الْقَتيرَا [٢]
وَبَانَ الشَّـــــــبَابُ بَلَذَّاتِهِ فَوَلَّى وَأَصْبَحْتَ شَيْـــخاً كَبِيرَا
تَطَرَّبْتَ وَاهْتَجْـــتَ لِلْغَـانِيَا تِ هَيْهَاتَ حَاوَلْتَ أَمْـراً عَسِيرَا

ثم أغلقت الباب وخلتْ، فانصرفتُ مخزياً كمن دخل النار [١].

---

(١) خميسي، أخبار الأعراب/١٣.

(١) الجلاء: خلو الرأس من الشعر، أو سقوط الأسنان بسبب التقدم في العمر. القتير: أول ما يظهر من الشيب.

أحسّ الموصلي بأنّه دخل النار، وهو إحساس يعبّر عن شعوره بعذاب نفسيّ رهيب فالمرأة أهملته واستهزأتْ بشيبه لتقدّمه في السنّ. فقد ولّى الشباب حميدة أيّامه وجاء المشيب بكلّ يوم أسود، فالألم النفسيّ والانفعال بخيبة العاشق جعلاه يشعر بشعور من تلظّى بالنار.

- كان ابن حمدون أخفّ الناس روحاً، وأحلاهم دعابة، وكان المتوكل يستملحه. فقال يوماً: الزئبق من أين يجاء به؟ فقال ابن حمدون: من الشيز وأنا أعرف الناس بها. قال: قد وليتك إيّاها فاخرج إليها. فقال: فضاقتْ عليّ الدنيا[٢].

فُوجئ ابن حمدون بالمتوكل يولّيه (الشيز) الذي ادّعى المعرفة به، وهي ناحية من أذربيجان، ولم يكن ابن حمدون يطمع في السلطان، ولم تكن له همّه الحكّام، وإنّما هو رجل من أهل الفكاهة والملح، يحسن منادمة الملوك، ويجيد الطرف والإضحاك. وأقوال الخلفاء جديرة بالامتثال لها ولو كانت لحظات سمر أو هزل؛ فكان لقول المتوكل وقع عنيف في نفسه، ولم يكن في مكنته الاعتراض أو التحايل في الخلاص؛ فأحسّ بالدنيا على سعتها تنطبق عليه من كل نواحيها وتعتصره. إنّ هذا الإحساس يصوّر الضيق النفسيّ، والهمّ الثقيل مع قلّة الحيلة.

- دخل شيخ في هيئة حسنة على المغني إبراهيم الموصلي، وطلب منه أن يغنيه؛ فغناه صوتين، ثم أخذ الشيخ العود وغنّى:

أَلاَ يَا صَبَا نَجْدٍ مَتى هِجْتِ مِنْ نَجْدٍ ... لَقَدْ زَادَني مَسراكِ وَجْداً عَلى وَجْدِ
أَأَنْ هَتَفَتْ وَرْقَاءُ في رَوْنَقِ الضُّحى ... عَلى فَنَنٍ غَضِّ النَّبَاتِ مِنَ الرَّنْدِ
بَكَيْتَ كَمَا يَبْكي الوَليدُ وَلَمْ تَكُنْ ... جَليداً وَأَبْدَيْتَ الَّذِي لَم تَكُن تُبْدِي

=

(٢) التيفاشي، نزهة الألباب/٩٦ -٩٧.

(٣) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٣٩٩.

فقال الموصلي: فو الله لقد خلتُ كل شيء في الحضرة يتغنى معه حتى الأبواب والستور، ثم ضرب وغنّى:

أَلاَ يا حَماماتِ اللِّوَى عُدنَ عَودَةً فإِنّى إِلَى أَصـــــــــــوَاتِكُنَّ حَزينُ
فَعُدنَ فَلمّا عُـــــدنَ كِدنَ يُمِتنَني وَكِـــــــــــدتُ بأَسرارِى لَهُنَّ أُبينُ

ثم ضرب وغنى:

قِفا ودِّعا نجدًا ومن حلَّ بالحمَى وقلَّ لنجدٍ عـــــــندنا أن يُودَّعا
وأذكرُ أيامَ الحِـــــمَى ثمّ أنثني على كبدي من خشيةٍ أن تَصَدّعا

فقال الموصلي: فو الله لقد تغنى كل شيء معه بالحضرة؛ حتى النمارق والوسائد وقميصي الذي على بدني[1].

هذا إحساس نابع عن ذهول، ونشوة طفحت بالموصلي، ولم تتمكّن نفسه من احتماله، فأثّر على عقله وحواسه؛ فتخيّل أنَّ الأبواب، والستور، والوسائد، والنمارق، بل وجلبابه الذي على جسده تتغنّى مع هذا الشيخ، وتردّد الألحان، وتسجع مع الموسيقى وروعة الأداء، وهذا ردّ فعل يعبر عن إعجاب مبهر، وروعة مذهلة.

(١) الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر/٣٢٠ -٣٢١.

الخاتمة

تلك هي محاولة لرصد بلاغة الوقع من خلال بيان أثر الكلام ووقعه في النفس، وردّة الفعل المتجسّد في حركة جسد المتلقّي للكلام أو الخطاب، وقد عرضنا لبعض النماذج التي تدعم الدراسة، وخرج البحث ببعض النتائج، أهمّها:

١ - التعبير بحركة الجسد الناتجة عن ردّة الفعل تأتي في بنية خبريّة، ترويها كتب أخبار الأدب والنوادر، وهي تتراوح بين مشاهد جماعيّة وأخرى فرديّة.

٢ - ردود الأفعال هذه تأتي مجرّدة من التعبير اللفظيّ، ثم يعقبها التعبير أو الكلام بعد زوال الدهشة، أو المباغتة، وإذا جاء الكلام يكون شرحاً أو تفسيراً لردّة الفعل، أو تعضيداً لها.

٣ - تأتي ردود الأفعال أو التعبير بالجسد - في كثير من الأحوال - متدرجاً؛ كأن تبدأ ردّة الفعل بصيحة، ثم شقّ الثوب، ثم الإغماء، ثم التكلّم بعد زوال تلك الأعراض.

٤ - أهمّيّة البنية الخبريّة التي ترسم المشهد بكلّ أبعاده وتجلّياته، ويؤدّي الوصف الدقيق دوراً محورياً في تجسيد حركة الجسد.

٥ - يكثر في أخبار هذا الأسلوب الاستغراق بـ (حتى) الدالّة على بلوغ الغاية لبيان حركة الجسد المفضي إلى بيان ردّة الفعل.

٦ - يعتمد هذا الأسلوب في المقام الأوّل على:

أ. المتلقّي : وملاحظة هيئته أو حركة جسده عند تلقّي الخبر أو سماع الخطاب.

بـ. مقدرة الجسم على التعبير.

ج. المفاجأة أو المباغتة التي تشعل الانفعال ، فيحرّك الجسد بطريقة عفوية.

د. الوصف الدقيق في كتب الأخبار.

٧ - لا تأتي كلّ ردود الأفعال من خلال حركة الجسد الظاهريّة التي يمكن ملاحظتها ، فقد تأتي عبر انفعال داخلي لا يدرك إلا بإفصاح المتلقّي عما داخله من شعور من أثر الكلام ووقعه.

قائمة المصادر والمراجع

[١] ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، أخبار الأذكياء، طبعة دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لينان، (ط١)، سنة ٢٠٠٣م.

[٢] خميسي، عمار، أخبار الأعراب، طبعة دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، (ط١)، سنة ٢٠٠٧م.

[٣] ابن الجوزي، الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن، أخبار النساء، تحقيق: إيهاب كريم، طبعة دار النديم للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، (ط١)، سنة ١٩٩١م.

[٤] القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، بهجة المَجالس وأنس المُجالس وشحذ الذاهن الهاجس، تحقيق: مرسي الخولي، طبعة دار الكتب العليمة، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

[٥] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طبعة دار الجيل، بيرت - لبنان، سنة ١٩٩٠.

[٦] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمد السلامة، طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض - السعودية، (ط٢)، سنة ١٩٩٩م.

[٧] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي وآخرون، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، (ط١)، سنة ١٤٢٧هـ.

[٨] الحصري، أبو إسحق إبراهيم علي القيرواني، جمع الجواهر في الملح والنوادر، تحقيق: علي محمد البجاوي، طبعة دار الجيل، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

[٩] الحصري، أبو إسحق إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، بشرح: علي محمد البجاوي، طبعة دار إحياء الكتب العربية، (ط١)، سنة ١٩٥٣م.

[١٠] ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، طبعة دار صادر، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

[١١] ابن سينا، الشفاء، المنطق - الشعر، تحقيق عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتألف والترجمة، القاهرة، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

[١٢] الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

[١٣] معجم المعاني، معجم إلكتروني على الشبكة الدولية للمعلومات.

[١٤] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، (ط٤)، سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

[١٥] ابن فارس، أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بدون تاريخ.

[١٦] الشريف الجرجاني، علي محمد السيد، معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة - القاهرة، بدون تاريخ.

[١٧] التيفاشي، شهاب الدين أحمد، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، تحقيق: جمال جمعة، طبعة مكتبة الريس للطباعة والنشر، قبرص، (ط١)، سنة ١٩٩٢م.

[١٨] زيدان، إبراهيم، نوادر الخلفاء، طبعة مؤسسة هنداوي، سنة ٢٠١٧م.

[١٩] ١٩ -ا بن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، عيون الأخبار، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر، طبعة المكتب الإسلامي، عمان، سنة ٢٠٠٨م.

[٢٠] أرسطو، فن الشعر، ترجمة وتحقيق: عبد الرحمن بدوي، طبعة مكتبة نهضة مصر، القاهرة - مصر، سنة ١٩٥٣م.

المجلات:

[١] الإبداع والتلقي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد الرابع، المجلد (٢٥)، إبريل ١٩٩٧م.

Reality in english Rhetoric fi namadhij min ' literature the news

Dr. ELnourani Abdlkareem Kabour Gobair

Professor in college of Arabic Language at Qassim University

Abstract:

Literature and anecdotes are full of news and stories that have been characterized by accurate description in the narrative of facts, in the narrative of dialogue, and in the statement of reactions to speech, and this was a catalyst for the study of impact. The eloquence of the effect is linked to a speech received by the recipient, and the speech contains something or things that surprise the recipient; The emotion of the soul with speech may create a visible movement of the body that can be observed and judged, and the movement may be moral within the soul that is only realized when the recipient reveals the effect of speech in himself. The eloquence of the effect is therefore another aspect of expression, or reaction to speech**.**

Key words: Reality, Receiving, Emotional Response, Kinesthesis